مأساة طبيب الخليفة ... مصححة

تأليف: نسيم مجلى

(هذه هى النسخة المعدلة – من نسخة الأسطورة المنسية – حنين بن اسحق) "

تقديم:

قصة هذه المسرحية ليس فيها إلا القليل من الخيال . فهى مأخوذة من سجلات التاريخ التى نقلها الرواة ودونها الفصحاء من كتاب الحوليات والموسوعات وهى مبنية أساسا على رسالة كتبها حنين بن اسحق بخط يده بعنوان "المحنة الكبرى " ونقلها ابن أبى أصيبعة فى كتاب " عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ".(+)

بطلها طبيب عبقرى ومترجم فذ ساهم بأكبر الجهود فى نقل العلوم والفلسفة الإغريقية، وكان له أكبر الأثر فى بعث الحضارة العربية. بطلناعاش فى العصر العباسى، وعاصر مجد بغداد ، وحظى بأعلى مراتب التقدير والإعجاب ، لكنه لم يسلم من التنكيل والتعذيب من حكام تحكمهم الأهواء ، ومناخ يغلب عليه الاستبداد ، وتلونه مشاهد العنف والدماء .

إنها حقا مأساة وأى مأساة، فما أشبه اليوم بالبارحة. فتعالوا نستعيدها لنرى كم تقدمنا فى مدارج النحضر والعمران أو كم حصدنا من كوارث الجهل والإدمان. تعالوا نستعيدها من جديد لعلنا نستفيد والعبرة لمن يعتبر. وحتى تتأكدوا من صدق الرواية جئتكم بواحد من شهود الأحداث التى عاشها حنين ، وكان قدره أن يحمل هذه المسئولية النبيلة ، مسئولية نقل أخبار هذا العصر الفريد إلى من جاء بعده من أجيال.

ذلك الرجل هو يوسف بن ابراهيم، صديق حنين ورفيقه فى أيام الصبا والشباب، وأحد شهود مجده ونكباته. يصنفه كتاب ذلك الزمان بأنه نديم الأمراء، وجليس الشعراء والأدباء، وصديق الأطباء والعلماء ، حافظ أسرارهم ، وراوى أخبارهم . فاسمحوا لى أن أخرجه من لفائف التاريخ المحفوظ ليحكى لكم بشكل جديد قصة الملك الرعديد والطبيب الصادق الأمين على نحو جديد.

وحتى تكتمل جوانب الرواية اخترت هذه الجارية الفائقة الجمال التى وكل إليها أمر رعاية حنين فى السجن ومراقبته ونقل أخباره يوما بيوم الى الخليفة المتوكل. والمفارقة الغريبة هنا هى أن اسمها شهرزاد. وهى تملك الكثير من دهاء شهرزاد الأسطورية، وفتنتها ولباقتها. وقد رأيت أن أستعين بها لتضفى على المشهد شيئا من الرقة والجمال، وهى أميرة الحكى والتاوهات، والخبيرة البارعة فى وصف الحساد والأوغاد.

وحسبنا أنها كانت هناك، داخل أروقة الحريم بين المحظيات والجوارى، وكانت من المفضلات لدى الخليفة ولها مكانة خاصة كأهم مستشاريه. فكانت إذا أصابه القلق تهدهده وترقيه، وتحكى له حكايات عن الجن والعفاريت وعن الشطار والتجار فتنسيه هموم الملك ومكائد الأعداء حتى تنفرج أساريره، ويبتل فرش سريره ويروح فى نوم عميق. وبعد أن تطمئن على هذه الحال تغلق عليه باب حجرته، وتذهب هى فى نوبتها الليلية تستقصى أحوال الجوارى والحراس، وتتسمع الهمسات والشكايات فتضع أيديها على أخص الأسرار، ومن ثم تركنا لها مهمة كشف مايدور خلف الأسوار.

نسيم مجلى

+ راجع تفاصيل هذه فى كتابنا " حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية " الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة فى سنة 2006.

الفصل الأول

المشهد الأول:

ساحة أمام قصر الخليفة المتوكل.

الراوى:

نحتفل اليوم بمناسبة عظيمة يستقبل فيها أمير المؤمنين الخليفة المتوكل طبيبه الجديد ليقدمه الى الأمراء ورجال البلاط. أما الرجل الذى حظى بهذا الشرف العظيم فهو حنين بن اسحق ، صاحب الشهرة الواسعة فى أوساط االعلماء والمترجمين ولا بد أنكم سمعتم اسمه من قبل كأشهر مترجم للعلوم الإغريقية إلى لغتنا العربية . وقد اختاره مولانا أمير المؤمنين الخليفة المتوكل ليكون رئيسا لأطباء قصره ، ونحن فى انتظارحضوره المبارك ليرأس مجلس البلاط، حيث يتوقع أن يعرض هذا الموضوع على أعضائه لأخذ المشورة قبل اصدار أمر التعيين.

(يعلن الحاجب دخول الخليفة لقاعة الاجتماع بصوت مرتفع فيهب جميع الأعضاء واقفين ثم يشير عليهم بالجلوس)

الخليفة : (يخاطب المجلس)

لقد جمعتكم اليوم لأخبركم أننى قررت تعيين حنين بن اسحق طبيبا خاصا لى ورئيسا لأطباء القصر. لقد استدعيته عدة مرات لأخذ مشورته الطبية، وكنت فى كل مرة أزداد ثقة به رغم أننى لم آخذ أى دواء يصفه لى قبل أن أشاور فيه غيره. وقد أفادنى علاجه فى كل المرات التى طلبته فيها إلى الحد الذى جعلنى أفكر فى هذا القرار .فما رأيكم.

عضو1: صحة مولانا أمير المؤمنين وسلامته هى مايهمنا أولا وقبل كل شىء، لكن يبدو أن لديكم بعض الشكوك نحوهذا الرجل، وهذا من حسن الفطن. لأن حنين بن اسحق مسيحيا من طائفة النسطوريين، وقد سافر الى بلاد الأعداء فى الاسكندرية والقسطنطينية بغرض البحث عن الكتب والمخطوطات.

عضو2: ولابد أن تكون له علاقات طيبة مع البيزنطيين الذين يبحثون عن ثغرة ينفذون منها إلى بلادنا، وربما اتفقوا معه على تدبير معين يخدم أغراضهم .

عضو3: أتعنى أنه يمكن أن يتآمرعلى مولانا أمير المؤمنين مثلا؟

عضو1: لم لا ، فالذى يصنع الدواء فى إمكانه أن يصنع السم . وعدوك عدو دينك.
ولابد من اختباره والتأكد من حسن نواياه.
الخليفة: وهذا ما سأفعله الآن.

الراوى: عند ذلك أمر المتوكل باحضار حنين بن اسحق. فدخل عليه وانحنى يقبل يديه ثم أخذ يدعو له بدوام الصحة وطول العمر. استقبله المتوكل استقبالا حسنا، ورحب به ثم أمره بأن يجلس أمامه، وعبر عن إعجابه ببراعته وحسن أخلاقه. فقال له:

اسمع ياحنين، لقد وقع عليك اختيارى لتكون طبيبى الخاص، ومعنى هذا هو أننى سوف أءتمنك على نفسى وأجعلك موضع سرى. وقد احضرنا لك توقيعا فيه إقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم. وسنكافئك بالكثير والكثير، ولكن لى عليك طلب أريد أن تنجزه الآن: أن تصف لى دواء فتاكا يقتل عدوا نريد قتله سرا.
حنين : يا أمير المؤمنين إنى لم أتعلم إلا الأدوية النافعة. وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها. فإن أحب أن امضى وأتعلم فعلت ذلك.
الخليفة: هذا شىء يطول. إن أمامك الآن كل هذه الأموال والعطايا، فإن وافقتنى كانت لك وأكثر منها وإن خالفتنى عذبتك عذابا شديدا.
حنين : أنا لا أعرف كيف تصنع السموم فأنا طبيب ومهنتى هى شفاء المرضى وتخفيف ألام المجروحين، وليس قتلهم .
الخليفة: إذن فقد جنيت على نفسك. خذوه إلى السجن بالقلعة.

المشهد الثانى

الراوى: (يشير إلى القلعة) هذه قلعة عالية على نهر دجلة اعتاد الخليفة أن يقيم فيها احتفالاته الرسمية، وأن يزورها من وقت الى آخر لقضاء بعض الأمسيات مع ندمائه وجواريه المفضلات. وقد وضع حنين فى هذا السجن حتى لايكون بعيدا عن حريم الخليفة ، اللائى قد يحتجن الى مشورته فى علاج أمراضهن بل وحتى من الوعكات الخفيفة التى تصيبهن. وكان بينهن جارية جميلة وذكية وعلى درجة عالية من الثقافة والإحساس المرهف، تعرف كثيرا من التاريخ، وتحفظ أجمل ابيات الشعر فضلا عن معرفتها بدسائس القصوروأحوال الحكام .

وقد وكل إليها الخليفة أمر حنين لكى تراقبه وتزوره من وقت الى آخر لتسأله عما يحتاج اليه وأن تحاول الدخول الى عالمه الخاص عن طريق الحديث فى الأدب والشعر والفلسفة، وكذلك عن أيام طفولته وصباه ، وكيف تأتى له أن يتقن أربع لغات قبل أن يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر؟ وفى أى البلاد تمكن من اللغة اليونانية واستوعب ثقافتها وعلومها الطبية ؟ وعن مغامراته العاطفية وحياته هناك ، لعلها تعثر من خلال ذلك على ثغرة تنفذ منها الى كشف أسراره ونواياه . حتى يطمئن إليه الخليفة أويتخلص منه. ومن جانبها حاولت أن تطمئن حنين فتدعوه لزيارة الحريم والاستماع الى شكاوى المرضى من الجوارى ونساء القصر. وقد حقق حنين نجاحا كبيرا جعل الكثيرين منهن يحطن به فى اعجاب ومحبة

(فى مدخل القلعة يقف رجلان هما قائد القلعة ومساعده.)

القائد : خذ بالك جيدا فهذا السجين ليس رجلا عاديا. إن الخليفة يحرص على وجوده وسلامته لأقصى درجة. يقال إنه أعظم طبيب فى كل أنحاء بغداد.بل فى كل انحاء الخلافة العباسية .

المساعد : غريبة ،و لماذا يسجنه هنا ؟ وهل تكون مكافأته السجن؟.

القائد : لا تتعجل الكلام وافهم . قلت لك إنه ليس سجينا عاديا وهذه ليست سجنا . إن هذه القلعة هى أعظم قلاع الخلافة وأكثرها حصانة . يلتصق بها قصر الخليفة المتوكل من الجهة الخلفية يحرسه الجنود الأتراك الذين جاءوا به الى السلطة. ومن أمامها يجرى هذا النهرالعظيم . إنه المكان المفضل للمتوكل الذى اعنادأن يقيم فيه احتفالاته، ويقضى فيه أجمل أوقاته مع حريمه وجواريه.

المساعد : يريد الخايفة أن يكون هذا الطبيب قريبا منه ومن حريمه وجواريه ؟

القائد : ألم أحذرك من السخرية والثرثرة ؟

المساعد : ألا يعنى هذا أن الخليفة حرصا منه على صحة حريمه سجن هذا الطبيب هنا ؟.

القائد : ربما ، وربما يريد أن يروضه حتى يخضع لكل مايريده منه.

المساعد : (يضحك) سبحان علام الغيوب ..!

القائد : إياك أن تتكلم فى السياسة. هذا قرارمولانا أمير المؤمنين الذى لاترد كلمته. وليس من شأن أمثالنا أن نناقش هذه الأمور.

المساعد : أنا لا أناقش. فقط أريد أن افهم.

القائد : وانت تفهم إيه ؟

المساعد : أفهم مهمتى على الأقل!

القائد : إن مهمتنا هى حراسة هذا الرجل وحمايته، وكذلك معرفة كل من يدخل إليه أو يخرج من عنده. هذه أوامر مولانا أمير المؤمنين. وقد خصص له ثلاثة من الجوارى الحسان للسهر على خدمته . وأوكل أمر الاشراف عليهن الى جميلة الجميلات ، نديمة المتوكل وكاتمة سره، الأميرة شهرزاد . وسوف يتلقى منها التعليمات بشكل مباشر يوميا.

المشهد الثالث

(حنين جالس على أريكة فخمة ينظر حوله فى صمت. تدخل شهرزاد)

شهرزاد : صباح الخير ياحنين. لعلك استمتعت بنوم عميق الليلة .

حنين : الحمدلله . نعمت الليلة بنوم هادىء لم يعكر صفوه شىء. ؟!

شهرزاد : طبعا بعد أن أخرجت الجاريات ولم تسمح لهن بالمبيت هنا. أترفض هدية الخليفة؟

حنين : وهل هناك من يجرؤ على هذا ؟

شهرزاد: إذن لم تجد بينهن واحدة تعجبك أو تجذبك.

حنين : لا. هن لاينقصهن الجمال ولا الجاذبية. لكن لم يكن بى حاجة لشىء من هذا .

شهرزاد: ولكنك سوف تحتاج لهن حتما. وقد أمر الخليفة بارسالهن ليقمن على خدمتك ليلا ونهارا وليسرين عنك هموم الفكر والوحدة. وهذه رغبة مولانا أمير المؤمنين. ورغبة مولانا لاترد ولا نجرؤ نحن حتى على اخباره بأنك رفضت وجودهن معك. (تغمز له بعينها) هذه أوامر عليا !.

حنين : كل وقتى مشغول بالقراءة والبحث كما ترين .

شهرزاد: إن هذا يجعلك فى أمس الحاجة الى من تخفف عنك توترات هذا الفكر وتستمع الى نجواك وشكواك. لقد خلقت حواء من أجل تسلية آدم وتبديد وحشته. والانسان مهما كانت سيطرته على نفسه يحتاج الى شريك من الجنس الآخر يفضفض له عن همومه ويسمع مواساته .

حنين: إننى رجل متزوج. ونحن معشر النصارى لانتزوج بأكثر من إمرأة وما دامت المرأة على قيد الحياة لايجوز لنا أن نأخذ غيرها .

شهرزاد: الله ! هذا شىء رائع . لكنك الآن فى ظروف صعبة محروم من الزوجة والأهل والأصحاب. والضرورات تبيح المحظورات. انظر الى الرجال من حولك لترى

.(فى صوت هامس) ألا تعرف كم جارية عند الخليفة؟.

حنين : (يهز رأسه فى حيرة) ومن أين لى أن أعرف؟

شهرزاد : إن الناس يثرثرون بهذه الأخبار ويتسلون بها. ولابد أنك سمعت من أحد خصومه ومن الذين ينتقدونه.

حنين : لم يتحدث أحد أمامى عن هذه االأمور الشخصية.

شهرزاد :لأن أصحابك وزوارك من كبار الأثرياء الذين لايشبعون من النساء، ولو أمكنهم منافسة الخليفة لفعلوا.

حنين : ربما. لكن الخليفة يملك أرواحنا جميعا فمابالك بالجوارى والمحظيات.(ثم يصمت)

شهرزاد : كلكم رجال وكلكم فى عشق النساء سواء.

حنين : لا تحشرونى ضمن هؤلاء السادة ، فأنا أعيش عيشة النساك صومعتى هى مكتبتى ومتعتى هى البحث والكتابة .

شهرزاد : النساك أيضا يشتاقون الى الجمال والحب .

حنين : يشتاقون الى جمال الروح .

شهرزاد: وهل هناك روح بلا جسد تسكن فيه. فالجسد هو هيكل الروح ومن يعشق الروح يعشق الجسد.

حنين : لقد غلبتينى.

شهرزاد: ألم تقرأ شعر هذا المتصوف الزاهد الذى يقول فيه:

يارب خلقت لنا الجمال فتنة وقلت ياعبادى اتقون

وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

حنين : هذا شعر جميل. لكن غواية الجمال كثيرا ما تؤدى الى التهلكة.

شهرزاد :هوه.هوه! أنت تصعب الأمور دائما.

حنين : ألم تسمعى بما جرى لحنين ابن الخصى.

شهرزاد: لم أسمع بهذا الإسم من قبل.

شهرزاد :هو أحد أصحابنا الذى راح ضحية العشق والهوى!

ولعل لسان حاله الآن يقول:

الهوى والشباب والأمل المنشود ضاعت كلها من يديا

يشرب الكأس ذو الحجى ويبقى فى الكأس للغد شيا

أما أنا فأ ترعت كأسى وحطمتها على شفتيا

شهرزاد : وما الذى جرى لهذا العاشق الولهان؟

حنين : كان للرشيد جارية رومية اسمها "خرشى " وكان لها مكانة عنده ، محلها عنده محل الخوازن. وكان لها أخت أو بنت أخت، ربما ساعدت الرشيد فى ارتداء ملابسه ذات مرة أو قامت بشىء مما تقوم به " خرشى ". هذه الجارية افتقدها الرشيد فى يوم من الأيام، وسأل "خرشى " عنها، فأخبرته أنها زوجتها لشاب من أقاربها فغضب الرشيد وقال لها: كيف تزوجين هذه الجارية لقريب لك بغير إذنى ، وقد اشتريتها من مالى . وهى ملك يمينى ؟.

اعتذرت "خرشى " وتأسفت بشدة على ماحدث منها وقالت إنها لم تكن تدرى أن هذا التصرف سوف يغضب مولاها الرشيد .لكنه لم يقتنع باعتذارها .

شهرزاد : وماذا فعل ؟

حنين : فى الحال قرر الانتقام ممن تزوجها فامر سلاما الأبرش أن يتعرف على زوجها ويقوم بتأديبه. فأخذ سلام يبحث عنه حتى وصل إليه. وأخذ يحتال عليه حتى ظفر به فخصاه. فابتلى بالخصاه بعد أن حملت الجارية منه.

شهرزاد: ربما أحس الرشيد أنها أرادت أن تبعد تلك الصبية الجميلة عن طريقه، فأكلته الغيرة .

حنين : كانت المسكينة تتصور أن مكانتها عنده سوف تغفر لها هذا التصرف وأن إسعاد شاب من رعاياه بزواجه من إحدى جواريه سوف يكون مصدر سعادة له. ولكنها صدمت وأيقنت أن هؤلاء الطغاة لايفكرون إلا فى أنفسهم فقط.

شهرزاد: وهل اكتفى الرشيد بهذا ؟ وماذا كان جزاء خرشى ؟

حنين: لم يمهله القدر كثيرا. فقد توفى الرشيد بعد ذلك مباشرة، وولدت الجارية فقامت "خرشى " بتربية الغلام وأدبته بآداب الروم وقراءة كتبهم. فتعلم اللسان اليونانى علما كانت له فيه رئاسة، وهو اسحق المعروف بابن الخصى .

شهرزاد: شىء فظيع حقا. لكن هناك فارق كبير. مشكلة صاحبك أنه تزوج معشوقة االخليفة دون إذن منه وكانت رومية. أما أنت يا حنين بن اسحق فكل ما تفعله إنما يتم بمباركة الخليفة ونحن نعرف أنك عشت سنوات فى بلاد الروم أيام دراستك وكانت لك مغامرات عديدة شبعت فيها من الروميات .

حنين : (شارد الذهن لايتكلم)

شهرزاد: هوه ! لا تسرح بعيدا .

حنين : آه . آه . (يهز رأسه فى أسى) كانت أيام نعمت فيها بالنشاط والحرية، والمرأة التى أحببتها فى القسطنطينية كانت معلمة للغة اليونانية وكانت على قدر عال من الثقافة والجمال فأسرتنى بتفوق عقلها ورقة مشاعرها. (يختنق صوته) لآ أعرف أين هى الآن؟ أو ماذا حدث لها؟.

شهرزاد: أما زلت تحن إليها ؟

حنين : كانت حبى الأول. وقد ارتبطت بها عاطفيا وروحيا. وبادلتنى هى الحب والاهتمامات العلمية. كنا نحس أننا خلقنا أحدنا للآخر.وقد عقدنا العزم على أن نتزوج ونواصل طريقنا فى البحث والترجمة لكن أهلها رفضوا ذلك عندما علموا باصرارى على العودة إلى بغداد وقرروا منعها من المجىء معى ، فعدت وفى نفسى جرح عميق .

شهرزاد: ولماذا لم تتزوجها وتواصل العمل هناك .

حنين : لم تكن الظروف هناك تسمح بالبحث والتعمق فى العلوم إذ كان البيزنطيون فى مرحلة تخلف ثقافى شديد وكانوا يشكون فى نوايا كل من يهتم بالعلوم االعقلية والتجارب العلمية ويتهمونه بالكفر والهرطقة. كانوا مشغولين عن العلوم والفلسفة بالخلافات الدينية ومحاربة الهرطقات. وكانت الكتب العلمية فى مكتبات بيزنطة بعيدة عن متناول الباحثين خوفا عليهم من الزيغ .

شهرزاد: لا تأسف على مافات. أنت الآن فى ضيافة الخليفة المتوكل وقد أمر لك بثلاثة من الجوارى، فاخترت لك ثلاثة حوريات من عوالم مختلفة ؛ (تميل نحوه وتتكلم همسا) ولعلمك لم يمهرهن ميسم الخليفة بعد. واحدة فارسية والثانية هندية والثالثة عربية من بنات الرافدين .

فلك أن تقرأ أو تكتب أو تتريض فى هذا الجناح الخاص بك، أو تدعوهن الى الرقص والغناء. (تضحك ضحكة ذات مغزى وترمش بطرف عينيها للجوارى) أو تقرأ لهن أشعارك وقد سمعنا أنك تتغنى أحيانا بشعر هومروس أميرشعراء االإغريق. فماذا قلت ؟

حنين : قلت لاحول ولاقوة إلا ب بالله.

شهرزاد: الرجال لا يصبرون طويلا على الحرمان. أتظن أنك أقوى من قيصر، ذاك الفاتح العظيم الذى غزى العالم ودوخ كبار القادة فى عصره. لم يصمدإلا لحظات قليلة أمام سحر كليوباترا وفتنتها الأنثوية، فلم يكد يراها على شاطىء الاسكندرية حتى جن بها وأخذت رأسه فى الدوار , فاستسلم لها وتعاون معها على قتل أخيها الذى كان ينافسها على الحكم فتم التخلص منه ومن مشاكله، وهكذا يصبح العشق طريقا للنجاة والحرية .

حنين :(يضحك) وأين أنا من قيصر أوكليوبترا؟.

شهرزاد: بل أنت أكثر حظا من قيصر. فقد أودع الخليفة بين يديك ثلاثة من الحوريات أروع مائة مرة من كليوبترا. وتذكر أن هدايا أمير المؤمنين لاترد.

حنين : (ينظر فى خضوع) لا أعرف كيف أعبرعن امتنانى وعرفانى لمولاى أمير المؤمنين.

شهرزاد : لا تشغل بالك بهذا الأمر. سوف أنقل له اعتزازك بالهدية، وبهذا يمكننا أن نستأذنه فيما تريد بعد ذلك. فاكر لما طلبت احضار كتبك واوراقك أحضرناها بأسرع مايمكن. (تتلفت حولها وتشير) شوف هذا الجناح الفخم الفسيح. أخترته لك كى تعمل فى هدوء بعيدا عن رقابة الأجلاف من الحراس، وانتقيت لك هذه الحوريات ليطفن بك من وقت لآخر، من أجل طعامك وشرابك والتسرية عنك. فانعم بصحبتهن. ضمهن الى جملة تلاميذك وأنا واثقة أنك ستستوحى من وجودهن شيئا مفيدا لعملك.

حنين : عملى شبه متوقف الآن. كان هناك من أملى عليه وهو يكتب لى، وكان ذلك يوفر كثيرا من الوقت والجهد، ويساعدنى فى سرعة الإنجاز.

شهرزاد: أتحب أن نحضره لك ؟

حنين : مستحيل. فكيف أطلب حرمان الرجل من حريته ووضعه فى السجن هنا معى.

شهرزاد : (تلوح بيدها فتهرع الجوارى نحوها فى هدوء ويتقدمن نحو حنين) انظر. هل يضيق صدرك بصحبة هذه االحوريات الجميلات ؟ انظر ياحنين ولا تنسى نصيبك من الدنيا، واشكر ربك ماحييت.

حنين: (ينظر فيهن واحدة بعد أخرى ويبتسم) ماشاء الله. هل فيهن واحدة تحسن الكتابة بالعربية ؟.

شهرزاد: لبيك لبيك يا حنين ...كل شىء بين يديك.

حنين : (يضحك بصوت عال) أهذا معقول؟.

شهرزاد:انظر إلى هذه الزهرة الحالمة(تمسك بها) تقدمى يا بنيتى. بلقيس يا حنين تتقن العربية قراءة وكتابة وتروى الشعروالحكايات البدوية. وهى ترغب فى البقاء معك لتتعلم على يديك اللغة اليونانية والترجمة.

حنين : مصادفة عجيبة !

شهرزاد : نحن لانركن إلى فعل الصدفة خصوصا فيما يتعلق بك .

حنين : أوه. أوه !هذا واضح تماما. (يهز رأسه كمن فهم المعنى متأخرا)

شهرزاد: وهذه صفاء أو صافى، لؤلؤة فى صفاء الزمرد والبللور.وهى من بلاد الفرس تجيد الفارسية والسريانية. سليلة بيت من بيوت العلم والأدب فى مدينة جنديسابور. كانت تطمح فى دراسة الطب لكن المجال لم يتح لها لاستكمال رحلتها. وهى تجيد العزف والرقص أيضا. أما باكينام ، تحفة العصر والأوان، فهى أقنومة الفتنة العاجية. أميرة هندية فى سلوكها و حديثها، لها صوت فى الغناء يحاكى صوت الكروان.

هل كنت تحلم بشىء من هذا. لقد أقبلن من تلقاء أنفسهن مبهورات بسمعتك فى علوم الطب والترجمة واعجاب الناس بك، فأحببن أن ينتفعن بوجودك هنا، ويغترفن القليل من علمك. وسوف تسمع منهن المزيد مما تحب أن تعرفه. وأنا واثقة أنك سوف تخفف عنهن كثيرا من الهواجس و الأوهام. ولا تنسى أنهن يتطلعن إلى حياة الانعتاق والحرية مثلك.

حنين :لابأس. سأ شركهن فى العمل معى وسوف يتعلمن الكثير والكثير!.

شهرزاد: اطمئن ياحنين وثق بنا. نحن نهىء لك حياة هانئة فى عالم ينسيك السجن والسجان. لأننا نعمل بوحى من إحساسنا وضمائرنا ولا نريد لك ضررا . فنحن نعرف قدرك أكثر من الآخرين ولا ننسى خدماتك لنا ولحريم السلطان. وقد منحنى الخليفة حرية التعامل معك. فلاتخشى شيئا. وانعم بهذا الجو الحالم وسوف تجد نفسك فى عالم ألف ليلة وليلة، على شرط ألا تكون شهريار.

حنين: شكرا ودعواتى لمولاى بالصحة وطول العمر.

(تخرج شهرزاد على صوت الموسيقى وتبدأ الفتيات الثلاث فى الرقص والغناء)

.

===

المشهد الرابع

فى الساحة أما قصر الخليفة

الراوى: ها أنا واقف فى الساحة الكبرى بعاصمة الخلافة، على مقربة من قصر الخليفة المتوكل . حاولت التسلل الى داخل القصر لأشهد أحداث هذه الليلة، فمنعنى الحراس . وقيل لى ممنوع دخول الطفيليين والبصاصين وناقلى الأخبار، حتى الشعراء والمداحين لن يسمح لأحد منهم غير

أهل الثقة والمقربين. وحتى لآ أخذلكم أو أخلف وعدى لكم بأنى سوف اتيكم بالاخبار، وأنقل لكم مادار خلف الأسوار، قررت الوقوف هنا فى مفترق الطريق انتظارا للخارجين من القصر لعلى أعثر بينهم على صديق ممن يثقون بى وأثق بهم ويقدرون مهمتى فى نشر الأخبار والمعارف واشباع فضول الناس وتنشيط ذاكرتهم. ويبدو الآن أننى قد وفقت فى هذا الأمر، فهاهو قادم إلينا رجل همام أحسبه يوسف بن ابراهيم ؛ جليس الأمراء والوزراء، وموضع ثقة الشعراء والأطباء، المطلع على أخبارهم وحافظ أسرارهم. إنه أحد الرواة الثقاة فلننصت الى ما يقول:

– مرحبا أبا ابراهيم ، هيا طمنى على مصير حنين .

يوسف بن ابراهيم : لاتجزع ياصديقى، واطمئن فقد انتهى الأمر على خير مايكون .

الراوي : زدنى معرفة فإن القلق يقتلنى. فأنت تعرف صداقتى لحنين وقرابتى له. وأنا لست وحدى فى هذه الحال فهناك آلاف الباحثين الذين ينتفعون من ترجماته ومؤلفاته، وهناك المرضى الذين يلجأون إليه حين يعجز الأطباء الآخرون. وكلهم يتلهف على سماع الأخبار وما دار فى مجلس الخليفة الليلة.

يوسف : أقول الحمدلله الذى يحرك قلوب الحكام كما يحرك جداول المياه. فقد جاء الفرج بعد الشدة. كان الموقف فى بدايته عصيبا. فعندما أمر الخليفة باحضار حنين ليمثل أمامه، أحسسنا بكابوس يجثم على صدورنا. فالكل يعرف أن المتوكل رجل حاد الطبع، متصلب الرأى، متقلب المزاج، متسلط لايعرف الرحمة إذا استولى عليه الغضب.

الراوى: لم يكن احد يتوقع أن يتعرض حنين لكل هذا الإذلال، خصوصا وأن المتوكل كان يلجأ إليه كلما أصابته وعكة شديدة من المرض وأحس بعجز الآخرين عن شفائه.

يوسف: هذه هى المفارقة التى لاتفسير لها. فالمتوكل يتصرف دائما بدافع اللحظة لايشغل باله بالتفكير فى الصواب والخطا أو فيما ينفع الناس أو يضرهم، وإلا لتحول ذلك كله حرصا على مصالح الرعية ومستقبل البلاد.

الراوى : لكنك لم تقل شيئا محددا حتى الآن عن علاقة حنين بهذا كله. وما سبب غضب الخيفةعليه.

يوسف : مهلا فسوف أشبع فضولك. فأنت نعرف حنين جيدا كما أعرفه. تعرف ثقته بنفسه واعتزازه بعلمه، وشجاعته فى إعلان الرأى حتى لو كان مخالفا لرأى الكثيرين.

الراوى: أفى هذا شىء يعيب الانسان أو ذنب يحاسب عليه ؟

يوسف : حنين يهتدى بالعقل والمنطق ويلتزم أخلاقيات الدين فلا ينافق ولايحابى على حساب شىء من هذه المبادىء، وفى هذا مقتله. لكن المفارقة أن هذه الصفات هى التى أنقذته من هول المصير الذى كان ينتظره .

الراوى :(بفرح) هذا كلام عام وعائم.أرجوك أن تتكلم بوضوح أكثر.

يوسف : لقد امره الخليفة بأن يصنع سما فتاكا لقتل بعض الأعداء. لكن حنين رفض وأصر على الرفض، فوضعه الخليفة فى السجن، وعذبه لمدة عام حتى يتعلم الطاعة ولايقل(لا) أبدا لأصحاب السلطان.

الراوى : والليلة ؟

يوسف : أعاد المتوكل مواجهته بنفس الطلب فرفض أيضا وشرح للخليفة أسباب هذا العناد فعفى عنه. وأقام الخليفة احتفالا بهيجا بهذه المناسبة؛ تبارى فيها الشعراء وأهل الطرب و أبدعت الراقصات فى أداء فنونهم، وانطلقت الجوارى يوزعن كئوس الخمر على موائد الأمراء والقادة ورجال العلم والندماء، وشرب الخليفة حتى سكر وأخذ يعابث جواريه الحسان.

(من الأفضل أن يتم تجسيد هذا الاحفال على المسرح)

الراوى : وهل شرب قاضى القضاة والفقهاء ؟

يوسف: تمنعوا فى البداية لكنهم أمام نظرات الخليفة العاتبة والمنتقدة لهم اضطروا لمجاراة الأمر وإلا فالسيف والنطع.

الراوى: لكن قل لى بربك ،كيف كان موقفهم من محاكمة حنين ؟

يوسف : كانوا يطالبون برأسه. فهم سبب البلوة من البداية. فلم يكد الخليفة يعلن عن اعجابه بحنين ورغبته فى تعيينه رئيسا لأطباء القصر حتى أخذوا يهمسون له ويشككون فى نوايا حنين وفى اخلاصه ويتحدثون عن سفره إلى الاسكندرية والقسطنطينية بحثا عن الكتب والمخطوطات وعلاقاته بالبيزنطيين ويثيرون حوله الشكوك والاتهامات ويقولون إنه دسيسة نصرانية فى بلاط العباسيين. ويثيرون رعب الخليفة من الثقة به، ويرددون مقولة أن من يصنع الدواء فى مقدوره أن يصنع السم القاتل. وهكذا أوقعوا به فى هذه الضائقة التى نجا منها بأعجوبة كبيرة .

الراوى : الناس يتشوقون الى معرفة تفاصيل ماجرى أثناء المحاكمة. كيف بدأت وكيف انتهت . وأنت تعرف عشق الناس للثرثرة والنميمة، فهيا احكى لنا عن التفاصيل .

يوسف : لقد مكث حنين فى الحبس عاما كاملا همه النقل والتفسير والتصنيف غير مكترث بماهو فيه، فأمر الخليفة باحضاره الليلية واحضار أموال كثيرة يرغبه فيها. وأحضر سيفا ونطعا وسائر آلات العقوبات. فلما حضر حنين قال له الخليفة :

هذا شئ قد كان. ولا بد مما قلته لك. فإن أنت فعلت، فزت بهذا المال، و كان لك عندى أضعافه. وإن امتنعت قابلتك بشر مقابلة وقتلتك شر قتلة.

حنين : قد قلت لأ مير المؤمنين إنى لم أحسن إلا الشئ النافع و لم أتعلم غيره.

الخليفة : فإننى أقتلك.

حنين : لى رب يأخذ بحقى غدا فى الموقف العظيم. فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل.

الخليفة : (يبتسم) طب نفساً ياحنين و ثق بنا. فهذا الفعل كان منا لامتحانك، لأنا حذرنا من كيد الملوك وإعجابنا بك. فأردنا الطمأنينة إليك و الثقة بك لننتفع بعلمك .

(حنين ينحنى ويشكر الخليفة ويدعوله) .

الخليفة: يا حنين ما الذى منعك من الإجابة لطلبنا مع ما رأيته من صدق عزيمتنا فى الحالتين على قتلك ؟.

حنين : شيئان يا أمير المؤمنين.

المتوكل : و ما هما.

حنين : الدين و الصناعة.

الخليفة: و كيف ؟

حنين : الدين يأمرنا بفعل الخير مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا، و يبعد ويحرم من لم يكن كذلك. والصناعة تمنعنا من الإضرار ببنى الجنس لأنها موضوعة لنفعهم و مقصورة على مصالحهم. ومع هذا فقد جعل الله فى رقاب الأطباء عهداً مؤكدا بإيمان مغلظة: ألا يعطوا دواء قتالا ولا ما يؤذى. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ووطنت نفسى على استقبال الموت. فإن الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته. وكان يثيبنى.

الخليفة : انهما لشريعتان جليلتان .

يوسف: لقد أكبر الخليفه أمانته وصدقه كطبيب واستعداده للتضحية بحياته فى سبيل مبادئه العظيمة، فكافأه خير مكافأة ورفع مكانته، فأطلق عليه لقب " رئيس الفلاسفة والأطباء " وهو لقب لم يمنح لأحد غيره فى تاريخ الخلافة الاسلامية. وقد أثار هذا الأمر الغيرة فى قلوب جمع

كبيرمن الأطباء المسيحيين النساطرة أى من الطائفة التى ينتمى إليها حنين بن اسحق فأخذوا يدبرون له المكائد والمؤامرات التى تسربت تفاصيلها من داخل القصر.

المشهدالخامس

صالة جميلة فى بيت الطيفورى. يسلط الضوء على كبير الأطباء بختيشوع بن جبريل وهو يخاطب جماعة الأطباء النساطرة وهم ينصتون إليه فى اهتمام شديد.)

بختيشوع : أرجوكم أن تستمعوا إلى، فلم يعد هناك مجال للصبر أوالسكوت . لقد بلغ السيل الذبى وأصبح الأمر مسألة حياة أو موت. وأنا أموت كل يوم مرة أو مرتين. فمنذ أن أنعم الخليفة على حنين بن اسحق بلقب " رئيس الأطباء والفلاسفة " ومكانة حنين ترتفع يوما بعد يوم وينتشر ذكره فى جميع الآفاق حولنا، فلانكاد نصف دواء لمريض حتى يسألنا، وهل يوافق حنين على هذا العلاج، فيقتلنى الخجل من نفسى وأقول له، إن حنين لايعرف هذا الدواء، وأن حنين ليس بطبيب وإنما هو مجرد ناقل للكتب من الإغريقية ونحن ندفع له الأجر. وأن الخليفة حين كرمه إنما قصد إلى مجاملتنا جميعا نحن معشر الأطباء.
الطيفورى: هذا مانعانيه جميعا وهو أمر لايمكن السكوت عليه. ولا بد من اطفاء هذا الوهج الساطع وتشويه صورته بما ينفر الناس منه. فلنقل للناس جميعا إنه ليس بطبيب وأنه مجرد ناقل لعلوم الأقدمين بسبب معرفته باللغة اليونانية. أما الطب والعلوم التى ينقلها فلا شأن له بها .
طبيب آخر: لابد من حيلة للتخلص منه. فلنوقع بينه وبين أمير المؤمنين حتى يقضى عليه. وأعتقد أن الوقت قد حان للتخلص منه. فالخليفة يحس حرجا شديدا أمام الفقهاء ورجال الدين نتيجة تفضيله لحنين. وأنتم تعرفون مقدار العداوة له فى قلوبهم. فهم يقولون إنه هو الذى ترجم كتب المنطق والفلسفة التى اعتمد عليها المعتزلة والمشككون فى العقيدة .
طبيب رابع: وقد سمعت أن رده على خطاب يحيى بن المنجم قد أزعج الخليفة. فقد دعاه يحيى الى الدخول فى الإسلام فرد عليه قائلا إنه اختار المسيحية من الوجه الذى يقبل منه الحق ولن يتخلى عنها لأى سبب من الأسباب.
الطيفورى : الفقهاء يقولون إنه يروج لفلسفة اليونانيين العقلية التى تشكك فى الكتب المنزلة وفى الأنبياء، فماذا يمكن أن نقول نحن الآن بعد دفاعه عن عقيدتنا المسيحية وإعلانه أنه سوف يتمسك بها حتى الموت ؟.

بختيشوع : وهل تظنون أن ذلك مما يسر الخليفة أو يرضيه. إن المتوكل رجل شديد التعصب ودفاع حنين عن المسيحية لابد أن يكون قد ملأه بالغيظ والكراهية. وهو فى ساعة الغضب لايعرف إلا السيف والقتل. إنه رجل دموى لايعرف طريق العقل والحكمة. وهذه فرصتنا الآن لكى نضرب ضربتنا.

الطيفورى: لنفكر له فى حيلة.

بختيشوع: أمهلونى لأتدبرالأمر وسوف أخبركم بما سوف أفعل.

المشهد السادس

الراوى: وللوقت اتجه بختيشوع بن جبريل المتطبب إلى حانوت يبيع الأيقونات و صور االقديسين واختار أيقونة عليها صورة "العذراء مريم " وهى تحمل السيد المسيح بين يديها والملائكة قد أحاطوا بها، وهى أيقونة غاية فى الروعة والجمال أبدع الفنان فى رسم ملامحها وفى تجسيد معناها وقوتها، ولم يتردد لحظة فى دفع ثمنها، وهومبلغ من المال كبير إذ كانت أغلى تحفة لدى صاحب الحانوت. ثم حملها الخادم وسار خلف بختيشوع حتى دار الخليفة المتوكل ،الذى تلقاها بيديه وهو فرح بها وظل برهة طويلة ينظر إليها بإمعان وانبهار ثم يهز رأسه فى إعجاب، وينظر الى بختيشوع الذى انحنى أمامه، وأخذ يقبل الأيقونة مرات ومرات وهى بين يديه فقال له المتوكل : لماذا تقبلها ؟

بختيشوع: يا مولانا إذا لم أقبل صورة سيدة نساء العالمين، فمن أقبل ؟

المتوكل: وهل كل النصارى يفعلون هذا ؟

بختيشوع: نعم يا أمير المؤمنين، بل وأفضل منى، إلا أننى أعرف رجلاً فى خدمتك، وأفضالك وأرزاقك جارية عليه، من النصارى أيضا لكنه يتهاون بها ويبصق عليها. وهوزنديق ملحد، لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة، يستتر بالنصرانية، وهو معطل مكذب بالرسل.

المتوكل: من هذا الذى هذه صفته ؟

بختيشوع: حنين المترجم .

المتوكل: سأطلب إحضاره الآن، فإن كان الأمرعلى ما وصفت، نكلت به وجلدته، وأمرت بالتضييق عليه، وتجديد التعذيب.

بختيشوع :أنا أحب أن يؤخره مولاى أميرالمؤمنين إلى أن أخرج من هنا وأقيم ساعة، ثم يأمر بإحضاره.

المتوكل: لك هذا.

المشهد السابع

(يتغير المشهد ويدخل بختيشوع على حنين فى بيته.)

الراوى: وهكذا ياسادة ياكرام بدأ التدبير فى الظلام للإيقاع بأفضل العلماء والحكماء. فقد خرج بختيشوع بن جبريل من دار الخليفة المتوكل قاصدا الى بيت حنين بن اسحق ليرسم له طريق السقوط فى الحفرة التى حفروها له. ودخل بختيشوع على حنين فى بيته وهو يتظاهر بأنه مكروب ولديه رسالة عاجلة بريد أن يبلغها له.

بختيشوع: اسمع يا أبا زيد أعزك الله، ينبغى أن تعلم أن أمير المؤمنين قد أهديت إليه أيقونة قد عظم عجبه بها، واستحسانه لها وأحسبها من صورالشام.

حنين: من أهداها له ؟

بختيشوع : أنا لا أعرف. لكنى رأيت أن إعجابه بها شيئا يفوق الوصف فحدثت نفسى بما سوف يكون من أمر أمير المؤمنين معنا.

حنين : وما علاقتنا نحن بهذا الأمر ؟

بختيشوع : إنه أمر يتعلق بديانتنا وعقيدتنا اللتين تدافع أنت عنهما.

حنين : من أى وجه تعنى؟

بختيشوع: إنها أيقونة عليها صورة العذراء مريم والطفل يسوع المسيح وحولهما الملائكة.

فإن نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه، تولع بها وبنا وتمادى فى مساءلتنا وهو يردد أليس "هذا ربكم وأمه مصورين ".

فقد نادانى أمير المؤمنين وقال لى، انظريا بختيشوع إلى هذه الصورة، ما أحسنها ، و ايش تقول فيها ؟ فقلت له ، صورة مثلها يكون فى الحمامات وفى محلات البيع، و فى المواضع المصورة، وهذا مما لا يبالى به أحد ولا يلتفت إليه. فقال ، أوليس هى عندك شئ ؟ قلت ، لا ! قال ، فإن تكن صادقاً فابصق عليها، فبصقت، وخرجت من عنده، وهو يضحك ويعطعط بى، و

إنما فعلت ذلك ليرمى بها، ولا يكثرالولع بنا بسببها. و يعيرنا دائما، ولا سيما إن غضب أحد من ذلك، فإن ولعه بها سوف يزيد ويشتد.

حنين : (ينظر مستغربا) وهل تظن أنك بهذا قد أنهيت الأمر؟.

بختيشوع: لا أظن، فسوف يدعوك ويدعو الآخرين ويسألهم فى الأمر؟

حنين : وهل تعتقد فى صواب ماقلت أنت وما فعلت؟

بختيشوع : المهم أن هذا هو ماحدث فعلا .

و الصواب إن دعاك و سألك عن مثل ما سألنى أن تفعل كما فعلت أنا، فإنى قد عملت على لقاء سائر من يدخل إليه من أصحابنا، لكى أدعوهم أن يفعلوا مثل ذلك الفعل.

المشهد الثامن

(فى داخل قصر المتوكل)

شهرزاد: لم يشك حنين أبدا فيما قاله بختيشوع. فجازت عليه الحيلة وقبل ما أوصاه به، ولهذا عقد العزم على أن يعيد ماقاله بختيشوع حتى لايقع مالا يحمد عقباه. ودعا الله أن يهدى الخليفة إلى سواء السبيل .

ولم يمض وقت طويل. فما هى إلا ساعة حتى جاءه رسول الخليفة فأخذه إليه. فلما دخل عليه رأى الأيقونة موضوعة أمامه، نظر المتوكل الى حنين وأخذ يسأله.

المتوكل: انظر يا حنين الى هذه الصورة. أما ترى أنهاعجيبة وفى الحسن فريدة.

حنين : والله يا أمير المؤمنين إنها كما ذكرت.

المتوكل: فإيش تقول أنت فيها ؟.

حنين: مثلها مصور فى الحمامات، وفى الكنائس، وفى سائرالمواضع التى فيها الصور.

المتوكل: أوليست هى صورة ربكم وأمه ؟

حنين: معاذ الله يا أمير المؤمنين! أن يكون الله تبارك وتعالى، بصورة أو يصور، و لكن هذا مثال مما فى سائرالمواضع التى فيها الصور.

المتوكل: فهذه إذن لا تنفع ولا تضر؟

حنين: هو كذلك يا أمير المؤمنين.

المتوكل: فإن كان الأمرعلى ما ذكرت فابصق عليها. (يبصق حنين على الصورة)

شهرزاد: لم يدر المسكين بالمكيدة التى دبرت له. فلم يكد يبصق على الصورة حتى أمر المتوكل بحبسه، وارسل من يحضر ثوذيس الجاثليق أسقف الكنيسة النسطورية ورئيس الطائفة النسطورية فى بلاد الرافدين. فلما دخل هذا الشيخ الكبيرعلى أمير المؤمنين ورأى الأيقونة موضوعة بين يديه، وقع عليها قبل أن يدعو للخليفة فعانقها ولم يزل يقبلها ويبكى بكاء حارا وطويلا مما لفت أنظار الخدم فتقدموا ليمنعوه فأمرهم الخليفة أن يتكوه. ولبث فترة طويلة وهوعلى هذه الحال من البكاء ثم أخذها بين يديه ونهض واقفا، وهو يدعو لأميرالمؤمنين ويطنب فى الدعاء فرد عليه وأمره بالجلوس، فجلس والأيقونة فى حجره. وأخذ يسأله:

المتوكل : أى فعل هذا ؟ تأخذ شيئاً كان بين يدى، وتتركه فى حجرك من غير إذنى؟

الجاثليق: نعم يا أمير المؤمنين، أنا أحق بهذه التى بين يديك، وإن كان لأمير المؤمنين، أطال الله بقاءه أفضل الحقوق، غيرأن ديانتى لم تسمح لى أن أدع صورة ساداتى مرمية على الأرض، و فى موضع لا يعرف مقدارها، لأن هذه حقها أن تكون فى موضع يعرف فيه حقها، و يسرج بين يديها فى أكثر الأوقات أفضل الأدهان حتى لا تطفأ قناديلها مع ما يحرق أمامها من أطايب البخور.

المتوكل: دعها فى حجرك الأن .

الجاثليق ، إنى أسأل مولاى أمير المؤمنين أن يجود بها على، و يعمل على أن يقطعنى ما قيمته مائة ألف دينارفى كل سنة حتى أقضى من حقها ما يجب على.

المتوكل: قد وهبتها لك,

الجاثليق: والآن أحب أن أعرف فيما أرسل إلى أمير المؤمنين ؟

المتوكل: أريدك أن تعرفنى ما جزاء من بصق عليها عندك ؟

الجاثليق ، إن كان مسلماً فلا شئ عليه، لأنه لا يعرف مقدارها. لكن يعرف ذلك و يوبخ و يلام على مقدارما فعل، وإن كان نصرانياً، وكان جاهلا لا يفهم، فيلام و يزجر بين الناس ويتهدد بالحروم العظيمة ويعزل حتى يتوب،

المتوكل:فما الذى يجب على من فعل ذلك عندك؟

الجاثليق: أما عندى يا أمير المؤمنين، إذ كنت لا سلطان لى، أن أعاقبه بسوط أو بعصا ، فإنى أحرمه و أمنعه من الدخول إلى الكنائس، ومن القربان، ليبقى مرفوضاعندنا، إلى أن يتوب و يتصدق ببعض ماله على الفقراء و المساكين، مع لزوم الصوم والصلاة.

المتوكل: لك ماطلبت، فخذ الأ يقونة، وأفعل بها ما تريد. سآمر لك ببدرة من الدراهم، انفق منها على أيقونتك .

الجاثليق: يشكر الخليفة ويدعو له. (ثم يمضى فى طريقه الى الخارج)

شهرزاد : فلما خرج الجاثليق لبث الخليفة وقتا يتعجب منه ومن محبته لمعبوده و تعظيمه إياه، ثم أخذ يحدث نفسه قائلا :

"أما أنت ياحنين فقد وقعت فى يدى وسوف أعرف كيف أحطم غرورك واعتزازك بنفسك ومعاندتك لرسلى وندمائى. سوف أعرف كيف أكرهك على ترك دينك. وهاهم أخوانك فى العقيدة يشهدون عليك بأنك مخادع وزنديق ".

ثم أمر بإحضارحنين، فأحضروه إليه. وتم فى نفس الوقت احضارالسوط والحبال وأمر به فشد مجرداً بين يديه، وضرب مائة جلدة،

(يتم تجسيد مشهد الجلد ولو بصورة رمزيةعلى خشبة المسرح)

وبعد ذلك أمرالخليفة باعتقاله والتضييق عليه. كما أمر بحمل جميع ما عنده من أحمال و أثاث و كتب و ما شاكل ذلك، ونقض منزله وتسويته بالأرض.

مناجاه

حنين : هانذا أعود الى السجن والتعذيب الى أجل غير مسمى. يارب أنت شاهد وتعلم أنى مظلوم. أدعوك أن ترفع عنى هذا الظلم وتخرجنى من هذا السجن كما أخرجت يونان من جوف الحوت. انقذنى واكشف غدر أعدائى الذين تآمروا على وأوقعونى فى هذه الحفرة. أنت تعلم أننى لم أسىء لأحد منهم بشىء. وكنت دائما فى خدمتهم، أوثرهم على نفسى فى أغلب الأحوال. فلك أن تحكم بيننا وأن تهدى أمير المؤمنين الى الصواب، فينظرالى شخصى الضعيف ويرحمنى من كيدهم. وهل هكذا يكون جزاء الخيرين والأبرار!. فأقول كيف لا أبغض ويكثر حسادى ، ويكثر ثلبى فى مجالس ذوى المراتب، وتبذل فى قتلى الأموال.

كل ذلك بغير جرم لى إلى واحد منهم ولا جناية. لكنهم لما رأونى فوقهم و عالياً عليهم بالعلم والعمل، و نقلى إليهم العلوم الفاخرة من اللغات التى لا يحسنونها، ولا يهتدون إليها بأعذب الألفاظ واجملها، وأفصح العبارات وأبسطها، يفهمها من ليس له علاقة بصناعة الطب، ومن لا يعرف شيئاً عن الفلسفة.

وأيضاً أقول ولا أخطئ، إن سائرأهل الأدب، وإن اختلفت مللهم محبون، مقدرين لعملى، يأخذون ما أفيدهم بشكر، ويجازوننى عليه بأحسن جزاء ،. فأما هؤلاء الأطباء النصارى الذين يرومون سفك دمى، ويستميتون فى النيل منى، فهم أشدالناس عداوة لى وحقدا على ولا حيلة لى غير أن أحكم رب الكل بينى و بينهم. لأنهم ليسوا هم واحداً ولا اثنين ولا ثلاثة، بل هم ستة وخمسون رجلا، جملتهم من أهل المذهب، محتاجون إلى وأناغير محتاج إليهم. وأيضاً فإن أثرتهم مع كثرتهم قوية بخدمة الخلفاء، وهم أصحاب المملكة.

وإنما أنا أضعف عنهم من وجهين، أحدهما أننى وحيد، والثانية أن الذين يعنون بى من الناس محتاجون إلى الأصل الذى يعنى بأعدائى، الذى هو أمير المؤمنين.

المشهد العاشر

(اسحق وحبيش فى زيارة حنين)

الراوى: بعد شهرين تقريبا من دخول حنين الى السجن استأذن ابنه اسحق فى زيارته، وكان معه حبيش ابن أخت حنين ومعهما بعض المخطوطات التى طلبها. كان حنين قد تماثل للشفاء بعد عملية التعذيب والجلد التى تمت أمام الخليفة، وبدأ يتهيأ لاستئناف عمله فى الترجمة والتأليف. لم يكد ير ولده حتى ارتمى عليه واحتضنه وأخذ الرجلان يبكيان بصوت مسموع. فخرجت الجوارى واتجهن إلى حجرتهن وأفسحن لهم المكان حتى تهدأ مشاعرهم .ثم التفت حنين الى حبيش وعانقه بحرارة.

حنين : طمنونى يا أولاد عن أحوالكم .

اسحق : لا تجزع يا أبى . نحن بخير وأمورنا تسيرعلى مايرام. ولكن القلق يأكلنا من أجلك.

حنين : لقد سلمت أمرى إلى الله ليأخذ حقى ممن تأمروا على بالشر وأوقعونى فى هذه الحفرة

اسحق : سوف يفرج الله كربك أسرع مما تتصور، فلا تيأس وسوف ينكشف أمرهم قريبا.

حنين: لقد خدعونى فصدقتهم. كنت أخدمهم فى كل وقت وأترجم لهم مايطلبوه وأساعدهم فى مهنتهم. فكيف وصل بهم الحسد والحقد الى هذا الحد!.

اسحق : فى إمكانك أن تكتب للخليفة وتحكى له تفاصيل القصة وتطلب منه العفو.

حنين :وهل ترضى أنت ذلك على أبيك ؟ أتريد منى أن أعود وأنكر ماقلته أو أقول إن بختيشوع هو الذى لقننى الكلمات التى قلتها وأنه خدعنى وسخر منى ؟ هذا كثير على حنين بن اسحق أن ينزل الى هذا المستوى ويبحث فى الانتقام من أعدائه. لقد رفعت شكوتى لمن لاينام ولا يغفل.

اسحق : أنت أفضل منى، فأنا يأكلنى الغيظ، وأتلهف على الانتقام منهم. لقد تسببوا لك فى التعذيب والجلد ورموك فى السجن وربما يفكرون فى التخلص منك.

حنين: يا ولدى، لاتتعجل الانتقام، ولا تخشى على شيئا. المهم أن تتقوى بالله ولاتشغل نفسك يشىء غير عملك. فسوف ينتهى كل ذلك وسوف يموت الجميع. ولكن تبقى أعمالهم التى تنفع الأجيال القادمة. وسوف يذكر التاريخ لكل انسان عمله.

اسحق: لقد أرحتنى الآن ورفعت روحى وسوف أطمئن والدتى وأخى على أحوالك.

حنين : طمئنهم. قل لهم إنى بخير وقد بدأت اتعافى وأمارس عملى. هل وجدت مخطوط العهد القديم؟ .

اسحق: لقد وجدته وأحضرته معى.

حنين:(بفرح شديد) كيف توصلت إليه ؟ وكيف نجا من المحرقة؟.

اسحق: لقد انتهز بعض الناس فرصة حرق مكتبتك وقاموا بسرقة بعض الكتب قبل أن يأتى عليها الحريق. وقد وجدته بالصدفة مع أحد بائعى الكتب القديمة.

حنين: (فى دهشة) يا سلام يا اولاد. هل يعيد التاريخ نفسه؟.لقد أفلت هذا المخطوط من حريق مكتبة الاسكندرية، وعثرت عليه مع أحد باعة المخطوطات القديمة هناك، وهاهو ينجو مرة أخرى من حريق مكتبتى .

اسحق: صدفةعجيبة. أفهم من هذا أنك وجدته فى الاسكندرية ؟

حنين : بالصدفة أيضا. كنت وقتها مشغولا بالبحث عن مخطوطات كتاب البرهان لجالينوس . وكانت عندى نسخة ناقصة منه فأخذت أبحث عن نسخ أخرى لأقوم بمقارنتها وتصحيحها قبل أن أبتدىء فى ترجمة الكتاب، فقصدت القسطنطينية ثم الاسكندرية ولم أجد سوى الجزء الأخير الناقص فى دمشق. لكن فى الاسكندرية عثرت على هذا المخطوط النادر ضمن مجموعة مخطوطات ثمينة أخرى ولانعرف لها شبيها حتى الآن.

اسحق: وهل تنوى الآن ترجمته فعلا؟.

حنين: بإذن الله. لم لا، وقد وفرت لى شهرزاد وزميلاتها كل أدوات الكتابة وهيأن لى ظروفا طيبة للعمل.

اسحق: وكيف تتطمئن إلى صحة هذا المخطوط وأنت لم تقارنه بغيره كعادتك فى الترجمة.

حنين :هذه النسخة كاملة ومكتوبة بخط واضح. ولايمكن ان نعثرعلى نسخة أخرى إلا بعد أن يذاع أمر هذه الترجمة. عندئذ يعلن كل من لديه نسخة عنها وتبدأ عملية النقد والمقارنة مع الترجمة. فما رأيك ؟

اسحق : فكرة لم تخطر لى على بال .

حبيش: هل كانت لغة العهد القديم كله باليونانية؟.

حنين :اللغة الأصلية كانت العبرية. وقد ترجم هذا الكتاب الى اليونانية بأمر بطليموس الأول الملقب بطليموس سوتر أى المنقذ فى القرن الثالث قبل الميلاد.

اسحق : وهل كان هذا الحاكم مهتما بالديانة اليهودية ؟

حنين : طبعا لا، لكن الحديث الشريف يقول من عرف لغة قوم أمن شرهم.

حبيش: (يضحك).لكن هذا كتاب دين وليس فى قواعد اللغة ؟ ا

اسحق:الحكام يبحثون دائما عما يقوى سلطانهم على الشعب

حنين: أصل الحكاية إنه كان بين اليهود واليونانيين فى الاسكندرية تنافس ونزاع يتفجر بين وقت وآخر. وكان بطليموس مهتما بالاستقرار فى مملكته فقرر ترجمة الكتاب من العبرية إلى اليونانية حتى يتقرب بذلك الى اليهود أولا وثانيا حتى يتيح لليونانيين قراءة هذا الكتاب والتعرف على أصول الثقافة العبرية، وبهذا يقرب المسافة بين الطائفتين .

حبيش:(باستغراب) هل كان هذا الحاكم يفكر بهذا المستوى الراقى.

حنين: كان حاكما مستنيرا جدا، وهو الذى أنشأ المتحف ومكتبة الاسكندرية الشهيرة وجعلها منارة العلم فى العالم القديم. وكان يهمه أن يزيد التفاهم بين رعايا مملكته. ولأنه كان يؤمن بدور الثقافة فى تحقيق عملية التمازج والاندماج بين رعاياه، ومن ذلك أنه حاول التقرب من المصريين فاهتم بآلهتهم الفرعونية القديمة واحترم عاداتهم وتقاليدهم.

حبيش: حاكم برجماتى يريد تدعيم ملكه بأى وسيلة.

حنين : هذا صحيح، لكن الهدف كان أكبر من ذلك بكثير. فالسياسى الحكيم لابد أن تكون عينه على الواقع وإلا فسوف يصبح هو فى جانب والناس فى جانب آخر. كما أن هذا الحاكم اتجه إلى أفضل السبل لتجنب االصراعات الطائفية وهو تنشيط الحوار الثقافى بين اليهود واليونانين فى الاسكندرية.

اسحق : وهل ترجمة هذا الكتاب تكفى لتحقيق ذلك؟ .

حنين : هذا الكتاب يحتوى على أصول التراث اليهودى من عقائد وقانون وتاريخ، وهو يكفى لوضع الأساس. لقد كان الإغريق، كما تعرفون، أهل فلسفة عقلانية قامت عليها مدارس عديدة وأبدعت نظريات علمية وسياسية واجتماعية هامة،أما اليهود فكانوا أهل دين وعقيدة.وكان يهود الاسكندرية قد اتخذوا اليونانية لغة لهم، فابتعدت غالبيتهم عن لغتهم العبرية. فكانوا يحسون بالغربة عن تراثهم ولايجدون بين أيديهم شيئا يتباهون به أمام الإغريق ورثة الفلاسفة. فاراد هذا الحاكم المستنيرأن يترجم لهم كتابهم حتى يتمكنوا من دراسته وتفسيره والدخول به فى حوار مع اليونانيين، وبهذا وضع الأساس للحوار الثقافى. وهى أول محاولة فى التاريخ يقوم بها حاكم للتقريب بين الدين والفلسفة وبين الدين والعلم.

حبيش: لكننى قرأت فى أحد الكتب أنه كان يكره الفلسفة.

حنين: هذا حدث من ابنه بطليموس فيلادلفوس. فقد امتنع هذا الحاكم عن تقديم أية معونة للفلاسفة لأنه كان يضيق بهم ويقول إن لديهم عادة مزعجة هى مجادلة الملوك ذوى السلطة المطلقة.

اسحق: إذن فليس الخليفة المتوكل وحده الذى يكره الفلسفة والمنطق ويحرم الحديث عنهما.

حنين :(يهز رأسه) طبعا لا. ليس وحده ولن يكون آخرهم. فالفلسفة تطرح أسئلة وتحرك الفكر للنظر فى كل ماحولنا من أمور الحياة والمجتمع فتبدأ عملية النقد والبحث عن الأفضل. ولعل ماكان يجرى فى أثينا من محاورات ونقاشات سياسية يقدم دليلا مؤكدا على ما يمكن أن تحدثه الفلسفة فى أى مجتمع .

حبيش: وهذا يزعج الحكام كثيرا ويدعوهم للحذر.

حنين : الجدل حول الأفكار يولد مذاهب وأحزاب وهذا مالا يريده الحكام المستبدون.

اسحق: لقد اشتريت راحتى وتوقفت نهائيا عن ترجمة الفلسفة.

حنين: اتجه الى الرياضيات أو الطب. هذا أفضل فى الوقت الحالى.

اسحق : هذا ما أفكر فيه فعلا.

حنين: لقد أخذنا الحديث بعيدا عن موضوع العهد القديم، و نسيت حكاية طريفة حول ترجمة هذا الكتاب .

حبيش: تخص اليهود أو بطليموس ؟

حنين: تخص الاثنين. لكنها حكاية أشبه بالأساطير إذ قيل إن بطليموس سوتر كان يرغب فى تقديم نسخة موثقة من مخطوطات الكتاب العبرية فأحضر سبعين باحثا يهوديا متضلعين فى اليونانية والعبرية، وأحضر سبعين نسخة من المخطوطات العبرية وأمرهم بأن يقوم كل واحد منهم بترجمة نسخته، وسوف يتم اختيار أفضل ترجمة. وبعد وقت قصير وبصورة معجزية وجد أمامه سبعين نسخة مستقلة فى وقت واحد، ووجد أن كل واحدة منها مطابقة للأصل. وقد عرفت هذه الترجمة بالترجمة السبعينية.

حبيش : أسطورة يهودية وتهاويل يريد بها أهل هذا الدين أن يبهروا عقول المخالفين ويجذبوهم الى احترام عقيدتهم.

حنين : وما الضرر فى هذا، وكل أصحاب الأديان يضخمون فى مثل هذه الأحداث.

حبيش: هذه أمور لايصدقها عقل ومن شأنها أن تبعدنا عن الحقائق وتذهب بنا فى الغيبيات.

حنين: رجال الدين عادة لا يستغنون عن هذه الحكايات الفولكلورية، لأنها ترضى عقول العامة وتشبع فضولهم.

اسحق: هذا يحدث فى كل الأديان. لكنك قلت إن الترجمة اليونانية كانت بداية الحوارالثقافى بين اليهود واليونانيين وبين الدين والفلسفة. فهل تظن أن الترجمة العربية التى تنوى تقديمها، يمكن أن تحقق شيئا فى ظل هذا المناخ السائد؟

حنين: طبعا. هذه الترجمة سوف تقدم للمسلمين والمسيحيين أساسا مشتركا لعقائدهم. وبهذا توفر أرضية صحيحة للحوار.

اسحق:على أساس أننا جميعا مسلمين ومسيحيين نرتبط بجد واحد هو سيدنا ابراهيم؟ .

حنين: هذا جانب، والجانب الآخرهو أن هذا التاريخ الذى يقدمه العهد القديم يعتبرأهم مرجع للقرآن حين يذكر الأزمان القديمة. إن تأكيد الاسلام على قرباه باليهودية والمسيحية، قد أعطى الوعى الاسلامى بعدا تاريخيا دعاه الى أن يقطع صلته بالجاهلية لكى يرتبط بتاريخ مقدس، يبدأ بخلق العالم ويتعاقب فيه أنبياء الله ورسله. (1)

حبيش:هذا تفكيرمتقدم ربما لايخامر أى عقل فى زماننا هذا، وليت الترجمة تنجح فى اطلاق هذا الحوار العقلانى بينهم .

حنين: الحوار قائم منذ البدء.وقد كان المسلمون الأوائل يتوجهون إلى أهل الكتاب يسألونهم عن هذا التاريخ القديم الذى يحيل إليه القرآن.(2)

حبيش : هذه محاولة نبيلة وندعو الله ألا تطول شدتك يا خالى، فنحن محتاجون دائما إلى علمك وحكمتك.

حنين : شكرا والى اللقاء.(يودعهما بالعناق ويخرجان)

1،2 – ورد هذا الكلام فى كتاب " الخطاب التاريخى– دراسة لمنهجية ابن خلدون" : تاليف د. على أومليل.

الفصل الثانى

يوسف بن ابراهيم:

عاد حنين الى السجن مرة أخرى ليقضى أياما لا يعرف عددها إلا أالله. والمعروف أن المتوكل وصل الى الخلافة بترشيح بعض القادة الأتراك فى الجيش العباسى بعد منافسة بين هؤلاء القادة وبين البيروقراطية المدنية التى تضم كبار كتاب الدواوين فى الدولة وتزعمها الوزير محمد بن الزيات. ولكن المتوكل بدأ يدرك بعد فترة وجيزة خطورة تدخل الجيش فى السياسة والإدارة وحاول أن ينهج نهجا جديدا بهدف انقاذ الخلافة من هذه الورطة. وقد نجح فى أول الأمر فى الحد من نفوذ القادة العسكريين الأتراك. إلا أن هذا لم يقض على مخاوف الخليفة من مطامع القادة الأتراك المتنفذين ومخططات الأحزاب والفرق المعارضة للدولة. وتجاه هذه الأخطار أصبح الخليفة المتوكل فى حاجة ماسة الى سند شعبى قوى ذلك السند الذى لايستطيع الحصول عليه إلا إذا كسب تأييد الفقهاء ورجال الدين ذوى التأثير القوى على العامة من الناس.

والمعروف أن فئة منهم كانت تنادى بالتشدد فى استخدام الذميين فى الوظائف وتحديد نشاطاتهم فى مجالات الحياة المختلفة خاصة، وأن قسما منهم نشط فى نقل التراث اليونانى من فلسفة ومنطق الأمر الذى اعتبره الفقهاء مبعثا للجدل والتشكيك فى العقيدة .

وفى أثناء ذلك تصاعد الهجوم على الزنادقة وعلى الذميين ، فكتب الجاحظ كتابه الموسوم " الردعلى النصارى " وكتب أبو الحسن على بن سهل ربن الطبرى " كتاب الدين والدولة " وركز الفقهاء هجومهم على المعتزلة وأصحاب الفلسفة والمنطق وعلى رأسهم حنين بن اسحق . ووجد الخليفة حكمه الذى يعتمد أساسا على الجنود الأتراك يهتز وأحس أنه فى حاجة ماسة لكسب مساندة الفقهاء ورجال الدين فى وجه المعارضة الداخلية المتمثلة فى المعتزلة والعلويين ففكر فى أن يجعل حنين بن اسحق كبش فداء يستميل به رجال الدين والفقهاء المتعصبين الى جانبه فبعث الخليفة إليه بالقاضى والمحتسب لمحاكمته.

المحاكمة: (فى جناح حنين) لقد قرر أمير المؤمنين أن نجرى لك محاكمة عادلة

المشهد الأول

المحاكمة

يدخل القاضى والمحتسب على حنين فى سجنه.

المحتسب: لقد قرر أمير المؤمنين بأن نجرى لك محاكمة عادلة نقدم فيها رأينا ونترك الحكم النهائى للخليفة لكى يقرره. وعليك الآن أن تسمع التهم المرفوعة ضدك وأن تجيب عنها ولك كامل الحرية فى أن تقول مالديك أو تستدعى من تشاء للشهادة.

فقد اتهمك زملاؤك الأطباء النساطرة بالزندقة والإلحاد وتأكد أمير المؤمنين من أنك لا تحترم السيدة العذراء والسيد المسيح وأنك لاتقر بالوحدانية وأنك مكذب للكتب السماوية . وهذا كله بشهادة الأطباء النصارى من أبناء ملتك ومذهبك.

أما التهمة الثانية فإنك قمت بترجمة كتب المنطق والفلسفة اليونانية وساعدت الزنادقة والملحدين على فتح باب الجدل حول صحة الكتب المنزلة. وكان عملك فى بيت الحكمة تدعيما لفتنة المعتزلة التى تبناها الخليفة المأمون حول خلق القرآن، وما أدى إليه ذلك من قتل وسفك دماء. هذاهو الجزء الأول من قائمة الاتهامات المحررة ضدك ونترك لك الآن الفرصة كى ترد عليها، وبعدها سوف نستأنف الحديث.

حنين: هذه الاتهامات تستدعى مراحل تاريخية مختلفة لابد من الحديث عنها تفصيلا، فا سمحوا لى بفسحة كافية من الوقت للشرح والتوضيح حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. فهذه ليست تهمة سرقة أوقتل يمكن الإجابة عنها بنعم أو لا. بل هى قضايا فلسفية وسياسية مرتبطة بمراحل تداول السلطة واختلاف توجهات االخلفاء من وقت الى آخر. ففى ظل هذه التحولات يختلف التفسير والتأويل لكل عمل يقوم به رجل الفكر المرتبط بسلطان الدولة وتوجيه الحاكم . وفى ضوء هذا التقلب والتبديل يتغير تكييف التهمة فيصبح العمل العظيم جريمة كبرى وتفسر جرائم القتل والاغتصاب على أنها حماية لأمن الدولة .

القاضى: هذا كلام سليم ولا بأس بهذه المقد مة من فيلسوف مثلك .

حنين : (يبتسم) شكرا سيدى القاضى على هذا التكريم، وأعود الى البداية، أقصد بداية ترجمة العلوم الإغريقية التى بدأت منذ أجيال بين المسيحيين السريان باعتبارها ضرورة لفهم دينهم وعقيدتهم. ففى الرها كانت تقوم دراسات ومجادلات دينية مذهبية، بين اليعاقبة، والنساطرة مما جعل دراسة الغلسفة والمنطق حاجة ضرورية للدفاع عن المذاهب الدينية ضد المخالفين.

وكانت دوافع النساطرة السريان إلى تعلم اللغة الإغريقية، ودراسة العلوم اليونانية فى المدن السريانية ضرورة حيوية، لمواجهة ماكان يوجه إليهم من تهم من جانب الأورثوكس فى الإسكندرية وفى القسطنطينية.

القاضى: تعنى أن ترجمة الفلسفة وعلوم المنطق كانت ضرورة لفهم الدين المسيحى ومذاهبه.

حنين: بالتأكيد. وليس للمنطق والفلسفة علاقة بالتشكيك. فالمنطق معروف بأنه "آلة لضبط الفكر " والفلسفة الإغريقية طرحت علينا أفكارا وتصورات لفهم الكون الذى نعيش فيه. وهى ليست موجهة ضد الدين لأنها نشأت وازدهرت قبل نزول المسيحية والاسلام، وأنها وسيلة مفيدة لتحريك العقل البشرى وتدريبه على معرفة الصواب والخطأ.

القاضى: ولكن الأديان ياحنين بينت الحلال والحرام، وهذا واضح فى القرآن .

حنين: هذا صحيح فى مجال الدين والأخلاق، لكن الانسان مطالب أيضا بعمارة الأرض ودراسة الفلسفة تعين العقل البشرى على التفكير والتخيل والنهوض حتى يتمكن من فهم نواميس الكون. واستثمار ذلك فى زيادة قدرة الانسان فى السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمة المجتمع .

كيف تتحقق فلاحة الأرض وعمارتها دون أن نعرف تجارب الآخرين فى صنع الآلات وبناء السفن وتشييد الطرق والجسور وامتلاك وسائل القوة اللازمة لحماية حدود الدولة. فالمرصد الذى أقامه أبناء موسى فى بغداد يعتبر قفزة حضارية كبيرة. هل كان يمكن إقامته دون دراسة علوم الفلك والرياضيات. ونحن نعرف أن هذه العلوم أقيمت على المنطق .

المحتسب: وإيش يفيدنا هذا المرصد؟. يتجسس على الناس وعلى البيوت؟.

حنين: (يضحك) لاعلاقة للمرصد بالتجسس على الناس. المرصد يرصد حركات النجوم والكواكب ويساعد على معرفة التغييرات االجوية وعلى حركة الرياح وخدمة السفن، وهوأمريدخل فى مجال علم الفلك. ولعلنا نعرف أن الصابئة فى حران يهتمون بدراسة الفلك لأنهم يعبدون النجوم.

المحتسب : أعوذ بالله . هذا كفر!

حنين:هذا أمر يخص الصابئة وحدهم ويرتبط بحرية العقيدة. لكن المرصد يمكنه أن يخدم المسلمين أيضا، ويساعد فى تحديد بدايات الشهور القمرية وتحديد مواقيت الصلاة وكذلك المواسم والأعياد الاسلامية .

المحتسب: ولكنه خروج على الدين ونحن لانسمح به الآن.

جنين: لقد أباح القرآن هذا الخروج فى قوله "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. قد تيبن الرشد من الغى "

القاضى : دعونا نعود الى موضوعنا الخاص بترجمة كتب الفلسفة والمنطق؟

حنين : قلت لكما إننا نترجم هذه الكتب من أجل زيادة فهمنا لمبادىء عقيدتنا و تقوية إيماننا بديننا. فإذا رأى أحد من الناس أن الفلسفة والمنطق تشككانه فى دينه أو فى الكتب المنزلة فهذا شأنه.

القاضى: المنطق والفلسفة تضعان العقل على مستوى واحد مع الكتب المنزلة. فما قولك؟

حنين: هذا تخريج خاطىء. إن تدريب العقل على قضايا المنطق والفلسفة هو رياضة عقلية لتوسيع أفق الانسان وزيادة وعيه حتى يفهم حدود الدين بصورة أكثر دقة، وقد أكد الأئمة أن العقل مناط التكليف. فالمجنون لايحاسب على تصرفه لأنه لايدرك الحلال من الحرام ولا الخطأ من لصواب. والقياس فى الدين يقوم على أساس الإيمان والكفر. ولكن فى المنطق والفلسفة يجرى القياس على أساس الخطأ والصواب.

المحتسب: لكن الدين أغنانا عن هذه العلوم الوضعية، وفى علم التفسير ما يكفينا ولا داعى لشطط العقول. وأنت تعلم أن هذه العلوم هى التى دفعت المعتزلة الى الشطط والزيغ حتى قالوا بأن القرآن حادث وليس قديم، وقد أدى هذا الى كثيرمن الفتن والآضطرابات التى راح ضحيتها الكثيرون.

حنين: كل انسان يسأل عما قال أو فعل. ورأى أن المنطق والفلسفة بريئان من تبعة الجرائم التى وقعت.لعل السبب فى وقوعها هو اصرار الخليفة المأمون على أن يفرض على الناس رأيه فطالبهم بأن يؤمنوا بإيمانه وأن يقولوا قوله بأن القرآن مخلوق وكل من رفض ذلك تم تعذيبه أوقتله وهنا تكمن المشكلة. والخلاص يأتى بإطلاق حرية العقيدة كما أمرالقرآن وتحريرعقول الناس وضمائرهم وأن تكون الدولة حامية وراعية للجميع دون إنحياز لدين معين أو مذهب معين .

المحتسب: لكن البذرة كانت فى الفلسفة والمنطق، ومعنى هذا أنك أعطيتهم السلاح الذى استخدموه.

حنين: السلاح ممكن يستخدم لحماية النفس والمال ويمكن استخدامه للقتل. فإذا اختار شخص أن يستخدم سكين المطبخ لقتل الناس فما شأن صانع السكين.

المحتسب:لن نستطيع أن نجاريك فى هذا الجدل الفلسفى ياحنين لأن هذا اختصاصك.

القاضى: (يضحك) ولأننا ضد الفسلفة طبعا.

المحتسب: إن حنين يأخذنا فى أحاديث بعيدة عن مهمتنا. إن التهمة المنسوبة إليك هى أنك كرست وقتك ووقت تلاميذك فى بيت الحكمة لترجمة هذه العلوم الضالة.

حنين : هذا لم يكن اختيارى ولكنه كان تكليفا من الخليفة المأمون الذى قال إن أرسطو قد ظهر له فى المنام وحادثه.

المحتسب: من هو أرسطو هذا ؟ وإيش قال له؟

حنين : أرسطو هو أكبرفلاسفة اليونان واهمهم فى مجال المنطق والفلسفة السياسية .

المحتسب: وماذا قال هذا الكافر.

حنين : قيل إن المأمون سأله عدة أسئلة كانت تحيره واستراح لإجاباته .

المحتسب: اختصر ياحنين وتكلم .

حنين: قال المأمون: رأيت فيما يرى النائم، كأن رجلا جالساعلى كرسى فى المجلس الذى أجلس فيه، فتعاظمته وتهيبته. وسألت عنه، فقيل لى" أرسطوطاليس "

فقلت أسأله عن شىء فقال اسأل. فقلت ماهو الحسن ؟ فقال: ما اسحسنته العقول. فقلت، ثم ماذا ؟ قال: ما استحسنته الشريعة. فقلت ثم ماذا ؟ قال: ما استحنه الجمهور. قلت ، ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم .

المحتسب: يعنى وضع العقل وما استحسنه أولا وبعده ماستحسنته الشريعة وبعده الجمهورألا يعنى هذا تفضيل العقل وتقديمه على الشريعة؟

حنين: هذا أمر طبيعى لأن العقل هو الذى يفسر الشريعة.

المحتسب: وهل صدقت أنت هذه الخرافات؟

حنين: وما شأنى أنا؟.هذا قول الخليفة المأمون. وهل كان يجرؤ أحد على تكذيبه.

القاضى: دعونا من أمر التصديق أو التكذيب. المهم هو كيف فهم المأمون هذه الرسالة التى بعث بها أرسطو ؟

حنين: لقد فهم المأمون من كلام أرسطو أنه ليس هناك اختلاف كبير بين العقل والشريعة. وتنفيذا لهذه السياسة أرسل الرسل للحصول على الكتب من القسطنطينية بناء على اتفاق مع ملك الروم، وجدد بيت الحكمة وأضاف إليه وحوله من مكتبة الى مجمع علمى كبير يضم مكتبة وأكاديمية ومركز للترجمة.

المحتسب : وما هو دورك أنت فى هذا المركز ؟

حنين: لقد اختارنى المأمون رئيسا لهذا المركز فاخترت بعض التلاميذ وجمع هو بعض النجباء ليعملوا معى وكلفنى بترجمة كتب المنطق والفلسفة بصفة خاصة.

المحتسب: فرحبت طبعا.

حنين : هذا عملى.

المحتسب: ألم يكن من حقك أن تشير إلى الضرر المحتمل نتيجة لهذا لقرار ؟

حنين: لست من الذين يملكون القدرة على التنبؤ بالغيب..

المحتسب : لكن كيف يقيم الخليفة مذهبه على أساس ألأحلام ؟

حنين : هذا شأن الخليفة المأمون وحده ؟

المحتسب : وهل تؤمن أنت بالأحلام ؟

حنين : الأحلام تتراءى للكثيرين بفعل المخاوف أو الرغبات. وعلى رأى المثل: حلم الجعان عيش.

المحتسب: يعنى المأمون كان يفكر فى هذا الحلم أو ينتظره؟.

حنين :لا أعتقد ذلك. فلو كان المأمون ينتظر هذا الحلم أو هذه الرؤية لكان ذلك يعنى أن المأمون لديه معرفة سابقة بأرسطو وفلسفته، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنه يعنى أن المأمون خطر له هذا الحلم فعلا وتأثربقول أرسطو.

القاضى : كيف تفسر قبول المأمون لهذا الحلم يا حنين ؟

حنين : الحكاية بسيطة جدا. إن المأمون الذى اعتنق نظريات المعتزلة التى تقول بأن النصوص الدينية يجب أن تتفق مع العقل قد وجد فى فلسفة أرسطو دعما لموقفه، فأعلن ذلك.

المحتسب: أليس من الأوفق أن نقول إن العقل يجب أن يتقبل النصوص الدينية على أساس التسليم بصحتها ؟

حنين: لكنه لم يقل هذا.

المحتسب: وهل هناك فارق كبير إذا قلنا هذا ؟.

حنين: طبعا. فيه إلغاء لدور العقل فى الفهم والتفسير. فكيف يسلم الإنسان بصحة النصوص قبل أن يفهم معناها. وفهم النصوص الدينية يحتاج الى معرفة تاريخ نزول الأيات وأسبابها كما أن هذه النصوص تحتاج الى شرح وتوضيح وتأويل حتى تفهم على وجهها الصحيح.

القاضى: هذا يكفى الآن ودعونا نأخذ فترة استراحة .

المشهد الثانى

(موسيقى هادئة– أغنية خفيفة مع رقص تعبيرى لمدة دقائق وبعدها يعود القاضى والمحتسب لاستكمال المحاكمة)

القاضى: نبدأ الجلسة الثانية والكلمة الآن للمحتسب

المحتسب: ننتقل ياحنين الى آخر الاتهامات وأخطرها وهو تعريضك بالدين الاسلامى والاشارة إليه بأنه دين باطل وليس حق.

حنين: لم يصدر عنى أبدا مثل هذا لكلام.

المحتسب: هل نسيت ما قلته فى ردك على محمد بن عيسى بن المنجم حين أرسل يدعوك الى الدخول فى الاسلام ؟

حنين: رسالة ابن المنجم هى محاولة لغوية وفلسفية قام بها لتطبيق البرهان المنطقى فى مجال العقيدة الدينية. وكان يريد منى باعتبارى أستاذا له أن أناقش برهانه، وأبين له هل فهم كلمة البرهان وهل استطاع أن يطبقها بنجاح أم لا. وكان على أن أخلص له القول وأبين له شروط الصدق فى كل مقولة. كانت الرسالة أشبه بتدريب فى كتابة الإنشاء.

المحتسب: هوه ،لا أحد يعرف كيف يلاحقك يا حنين !

القاضى: (يضحك) وهذه بركات الفلسفة والمنطق.

المحتسب: ليتنا نستطيع تأجيل المحاكمة سنة أخرى حتى نتمكن من دراسة المنطق والفلسفة.

القاضى : حتى لواستطعنا التأجيل فمن المستحيل أن نجد فرصة للتعلم. أنسيت أن الخليفة المتوكل قد أصدر منشورا يدعو فيه إلى " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " ويهاجم فيه الزنادقة والمعتزلة وبعض الفرق الأخرى التى تعتمدعلى المنطق فى الجدل والنقاش.

المحتسب: (يهز رأسه أسفا) حظنا كده! لنترك أمر التعلم الآن فقد شاء لنا أمير المؤمنين أن نتعلم مايفيدنا ونبتعد عما يضرنا أو يضلنا.

القاضى : أحسنت.

المحتسب: اسمع ياحنين، قلت فى ردك الأول إنك اخترت المسيحية من الوجه الذى يختار منه الحق

ألا يعنى هذا أن الذين اختاروا الاسلام ومنهم على بن المنجم نفسه قد ضلوا عن طريق الحق ؟

حنين: أنا لم أقل ذلك. لقد تكلمت عن نفسى وعن اختيارى ومعرفتى بالحق والباطل، ولكل انسان الحق أن يحدد اختياره بكامل حريته.

المحتسب: لا ياحنين. تمهل، كلامك ملىء بالغمز واللمز. فهل يخفى هذا علينا ؟

حنين: كلامى واضح لايحتمل الغمز أو اللمز. وأنا لم أعتد اللف حول المعانى.

المحتسب: سأقرأ لك فقرة ولك أن تقول ماتعني. وساركز على استشهادك بقول أبى رابطة التكريتى السريانى أسقف نصيبين الذى قال" لا تخلو النصرانية من أن تكون إما حقا وإما باطلا والذين قبلوها من ان يكونوا إما عقلاء وإما جهلاء. وقد قبلها العقلاء بما لا يصح بالقياس االعقلى وقبلها الجهال وهي تصد عن الانهماك في لذات الدنيا . وقد قهر الجميع بالآيات لا بالسيف .والآيات أدل دليل علي ان الدين الذي تكون فيه هو الدين الصحيح عند الله عز وجل. والشريعة المسيحية تطابق هذه المقدمات والمجد لله دائما."

حنين: ماذا ترى فى هذه الأقوال ؟

المحتسب: ألا ترى أن ربطك بين القهر والسيف فيه هجوم خفى على الإسلام ؟

حنين: من أى وجه ؟

المحتسب: انت تقول إن العقلاء والجهلاء قد قبلوا المسيحية بدون أن يتعرضوا للقهر بالسيف.

والمعروف أن الفاتحين المسلمين كانوا يعرضون الاسلام على أهل البلاد المفتوحة ويخيرونهم بين الاسلام أو الجزية أو السيف ، فهل تجهل أنت ذلك ؟

حنين : يا سيدى أنا لا أجهل شيئا من ذلك. وربما تعرف أننى ألفت كتابا عن تاريخ العالم والأمم من بداية الخليقة حتى عصرنا هذا ووثقت فيه كل شىء. وحين تكلمت عن المسيحية ذكرت ماحدث حقيقة. والسؤال الآن: هل تظن أن ماقلته عن المسيحية فيه كذب أو مبالغة ؟

المحتسب: لا أبدا. فنحن نعرف هذا التاريخ.

حنين: شكرا على شهادتك,

المحتسب: لكن ماتقوله عن الاسلام ألايسىء الى الإسلام و المسلمين؟

حنين: أنا لم أقل شيئا فيه إساءة، فما تقوله أنت الآن هو استنتاجا من عندك. ياسيدى، لكل دين مدخله إلى البشر. فإذا كان المسيحيون قد استحسنوا مبدأ مسيحيا فلم يقاوموا الشر بالشر واستسلموا للإهانات والتعذيب والموت وفرحوا بالشهادة وتأثر الكثيرون بتضحياتهم المسيحية فإن هذا الطريق السلمى كان له جانبه السلبى.

المحتسب: كيف تقول هذا وقد انتشرت المسيحية فى أوربا حتى صارت الديانة الرسمية فى عهد قسطنطين؟

حنين : لكن الثمن كان فادحا. فقد ضاعت أرواح مئات الألاف دون مبرر معقول.

المحتسب: مشكلتك ياحنين أنك تحشر العقل فى كل شىء.

حنين: العقل هو طريقنا الوحيد الى النور وإلى المعرفة الصحيحة. ولا بد أن يكون لكل فعل نتيجة محسوبة، وإلا فإننا سنسير كالعميان لا نعرف كيف نتجنب الصراعات العبثية والتى تجلب الموت والهلاك. والأمثلة كثيرة.

المحتسب: اذكر بعض الأمثلة لكى نفهم رأيك.

حنين : خذ مثلا تلك الكتيبة المسيحية التى تم تجنيدها فى عهد الامبراطور الرومانى دقلديانوس وشريكه فى السلطة الامبراطور مكسميليان وأطلق عليها اسم الكتيبة الطيبية نسبة إلى مدينة طيبة. لقد جرى نقل أفراد الكتيبة جميعا لكى تحارب فى شرق بلاد الغال ضمن جيش الإمبراطور مكسميليان، فماذا حدث لها. كان عدد جنودالكتيبة يزيد على ستة الآف جندى مسيحى من صعيد مصر.فلما رفض جنودها أن يسجدوا للآلهة الوثنية حسب اوامر الامبراطور وأعلنوا تمسكهم بالإيمان المسيحى, أمر الإمبراطور بقتل كل جنود هذه الكتيبة، فقتلوهم عشرة عشرة حتى قضوا عليهم جميعا.

المحتسب: وما دلالة هذا من الناحية العقلية عندك؟

حنين: إن الموت بدون مقابل أو بدون مقاومة هو انتحار أى خروج على حدود العقل. ولا أعتقد أن المسيح حين دعانا الى التسامح وقال " من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر " كان يعنى هذه الدرجة من الاستسلام بل كان يعنى أن تصمد بقوة أمام عدوك فلا تستجيب سريعا للشرلكى تعطيه فرصة لمراجعة نفسه والسيطرةعليها. فإذا تمادى فى العدوان وجبت مقاومته ورده. وربما رأى المسلمون سلبيات هذه التجربة واختاروا الطريق الآخر.

المحتسب: تقصد الجهاد واستعمال السيف فى محاربة كل من يرفض دعوتهم .(يضحك)

لقد حدث هذا فقط فى بداية الدعوة، وبعد ذلك أصبح الأمر اختيارا .

حنين: ربما.

المحتسب: لكنك تكلمت عن النبى وقلت إن الأمم لا تقر بأن محمدا كان أكمل عقلا من جميع البشر، وأن القرآن ليس فيه إعجا.

حنين : ليس هذا ماقلته بالضبط. وأعتقد أن معك نسخة من جوابى، ويمكنك أن تقرأ من كلامى.

المحتسب: أيوه معى: يقول ابن المنجم عن النبى محمد "،
ولهذا أجمع الناس كافة.
من كان من أهل ملته، والمنتحلين منهم غير دعوته على أن الأرض لم يكن عليها مثله أكمل عقلا ولا أرجح رأيا، وأنهم يقولون إن عقله يرجح على عقول العالمين."
وجاء ردك كالآتى :
" ولم أجد(أكرمك الله!) الأمم مقرين بذلك.
إنى لا أجد اليهود يسلمون لك بأنه أكمل عقلا، ولا أرجح رأيا من موسى النبى.
ولا أحد من النصارى يقر لك بأنه أكمل عقلا ولا أرجح رأيا من شمعون الصفا رأس الحواريين. ولا أحد من المجوس يفضلونه فى العقل والرأى على زرادشت.
ولا أحد من اليونانيين يفضلونه فى ذلك على الاسكندر، وعلى الفلاسفة السابقين مثل فيثاغورث، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس، وإقليدس وبطليموس .بل وجدت أهل كل ملة وأمة، فى الملل، والأمم ، تصف نبيها وصاحبها (من العقل والرأى) مثل ما وصفت به نبيك، أو أكثر."

وهذه مناقشة للبرهان الذى أرسله لى ابن عيسى بن المنجم. وقد أحببت أن اوضح له أنه عرض هذه المقدمات على أنها معروفة عند جميع الأمم، وهى ليست كذلك.
والثانية إنه استنتج من تلك المقدمات نتائج لا تنتجها تلك المقدمات.
القاضى: هل لديك إضافات أخرى ياحنين ؟
حنين: جملة واحدة فقط " فأنت تعرف أن جماعة ممن تتزيا بزى الإسلام وتنتحله، قد فضلوا على بن أبى طالب على محمد، وأكثروا فيه القول. ويزعمون أنه عقل هذه الدولة، والذى قوى أمرها، حتى صارت الى ما صارت إليه."
القاضى: ما قول المحتسب فيما سمعت ؟
المحتسب: هو كلام صحيح لكن فيه جرؤة تستفز العامة وهذه هى المشكلة.
حنين : أنا لم أتحدث إلى العامة بشىء من هذا بل كنت أحاور أحد المفكرين المجتهدين.
المحتسب: بقت هناك نقطة خاصة بإنكارك لإعجاز القرآن.
حنين: ليس فى كلامى مايعنى هذا.لأن هذه النقطة أيضا ترتبط بمقارنات ومقدمات خاطئة وضعها ابن المنجم . فهو يقول إن الأمم تشهد بأن محمدا قد أتى العرب بالقرآن الذى هو لغتهم، وليس

فيه كلمة، إلا واستعملتها العرب فى كلامها. وكان ردى وكيف تشهد الأمم بهذا ، وهى لاتعرف هذه اللغة ؟ إذ كانت هذه اللغة للعرب فقط. لا لغيرهم من الأمم. كيف يمكن أن يشهد الروم والهند أنه أتى العرب بقرآن هو لغتهم، وهم لا يعلمون عن لغة العرب شيئا، ولا يفصلون بينها وبين سائر اللغات ؟ إذ كانت كل أمة منهم لاتعرف غير لغتها، وهى جاهلة بما سواها.

القاضى: خلاص ؟ انتهت أقوالك .

حنين : الحمد لله.

المحتسب: نتركك الآن ياحنين لنعرض هذه الأقوال على مولانا الخليفة المتوكل، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المشهد الثالث

(يتغير المشهد ويتركز الضوء على وجه الخليفة المتوكل وهو راقد على فراش المرض.)

يدخل القاضى والمحتسب الغرفة

المحتسب: أعز الله مولانا أمير المؤمنين ومتعه بالصحة والعافية.

القاضى: نرجو لك الشفاء يامولاى. ولا أدرى إن كان مولاى يسمح لنا بالحديث عن محاكمة حنين ؟

الخليفة: باختصار هل وجدته مذنبا فى شىء؟.

القاضى: لم نثبت عليه شيئا يدينه. وأننى أرى أنه عقلية علمية جبارة يمكن أن ندخره للاستفادة به لمصلحة البلاد.

الخليفة: ماقول المحتسب ؟

المحتسب: أنا أوافق القاضى على ما قال لكن حنين شخص عنيد ومكابر وبقاؤه قد يجلب علينا المصائب. نحن فى مأزق. فقد تمادى الفقهاء فى مهاجمة حنين وشحنوا عامة الناس بالكراهية ضده، وهم يطالبون برأسه الآن، ولا تنسى يامولاى أننا قد منيناهم بقتله، .فكيف نبرئه الآن؟

الخليفة: وما حكم القاضى فيما يقوله المحتسب.

القاضى: الشرع لا يجيز لنا أن نقتل بريئا إرضاء لمشاعر العامة أوالفقهاء. هذا أمر لايقره شرع الله.

الخليفة : وماذا ترى للخروج من هذا المأزق؟

المحتسب: لايوجد طريق آخر لإنقاذه من الموت سوى الدخول فى الاسلام. وبهذا نسترضى رجال الدين وتهدأ العامة.

الخليفة : (يبتسم ابتسامة ساخرة) لقد رفض حنين هذا الطلب من قبل.فهل يقبله الآن؟

المحتسب: الظروف تغيرت وعليه أن يفهم أن استقرار البلاد يفرض عليه الخضوع. فإما ينطاع للأمر أو يتحتم علينا قتله،

الخليفة : حاول أن تقنعه بالنجاة. واحذر أن تمسه بسوء دون أمرى.

(المحتسب والقاضى يخرجان ويضاء النور على حنين فى حجرته)

المحتسب: لقد استمعنا الى رأى مولانا الخليفة وتدارسنا الأمر ووجدنا أن كل الظروف ضدك. فالفقهاء يشنون عليك حملة شعواء تتهمك بالكفر وبالتشكيك فى الدين، والعامة تتصايح وتدعو الخليفة لقتلك، واخوانك الأطباء النصارى يتهمونك بالزندقة والالحاد فماذا تنتظر منا ؟

حنين: أنتظر فرج الله ورحمته.

القاضى: ونعم بالله .

المحتسب: شوف ياحنين. لم يعد لدينا وقت أوصبر وحالة البلاد لاتتحمل الأخذ والرد الآن. فلا خلاص لك من هذه المحنة إلا أن تدخل فى الاسلام.

القاضى: للأسف ياحنين، لايوجد طريق آخر أمامنا الآن. ففى ظل هذه الأوضاع المضطربة لم نجد مخرجا غير هذا، فماذا قلت ؟

المحتسب: اخلص ياحنين. السيف يقترب من رقبتك. فانطق بالشهادة لتستريح ونستريح جميعا

حنين: أشكركم وأشهد أمام الله أنكم أردتم إنقاذى من الموت، لكننى وطنت نفسى على هذا المصير وتركت شكوتى لله ليقتص لى ممن أوقعونى فى هذه المحنة والمجدلله دائما أبدا.آمين.

القاضى: أهذا قرارك النهائى.

المحتسب: تروى ياحنين، فنحن نحبك ونريد لك النجاة. وفكر فى الظروف وماتفرضه علينا الآن

حنين : هذا قرارى ولن أحيد عنه أبدأ.

المحتسب: هذاماتوقعه أمير المؤمنين.وعلينا أن نرجع إليه الآن. (يخرج ويتبعه القاضى)

(يتحول الضوء ويتركز على الخليفة المتوكل فى حجرته.)

المحتسب: لقد رفض حنين الدخول فى الاسلام رغم أننى حذرته بشده و أخبرته إنه لا يوجد طريق آخر لإنقاذ حياته.

المتوكل : (يهز رأسه) اتركوا الأمر لى كى أفكر فيه.

المحتسب: أعتقد أن مولاى قد صبر عليه طويلا. ولكن الظروف تطغط علينا. فجيش العباسيين يجاهد فى مواجهة البيزنطيين الكفرة على الحدود، ولا بد من الحفاظ على استقرار البلاد داخليا، وأعتقد أن حنين أضاع كل الفرص والأفضل أن ننتهى منه حتى تهدأ الأمور.

المتوكل: قلت لك اترك الأمر لى.

المحتسب: أمر مولاى

(يتنحى المحتسب جانبا وتتقدم شهرزاد)

شهرزاد: إن حنين يتمنى أن تتاح له رؤية مولاى، وسماع شكوتك، وهو أقدرمن الآخرين على معرفة مرضك. ونحن لن نخسر شيئا يامولاى إذا أذنت له بالمجىء. جربه يامولاى ولن تخسر شيئا.

الخليفة:.أنا الآن فى محنة. صحتى تتدهور يوما بعد يوم. لم يعد أمامى طبيب آخر ألجأ إليه سوى حنين. إننى أحوج الناس الى معونته الآن بعد أن فشل جميع الأطباء المعروفين. إن حياتى مرهونة بحياته، فكيف تريدنى أن أقتله؟

المحتسب: صحة مولاى فوق كل اعتبار، وفى سبيل ذلك يهون كل صعب.

الخليفة: هل فكرت فيما نقوله للناس أو للفقهاء إن نحن أخرجناه من السجن؟

المحتسب: لآعليك يامولاى. أنا قادر بإذن الله على اسكات الجميع وقطع لسان كل من يتفوه بكلمة.

المتوكل: هذا ليس حلا.

المحتسب: إننى أفكر جديا فيما نقوله للمشايخ أولا وسوف يتولون هم أمر الحديث الى العامة. لقد اخترع المأمون حكاية ارسطو ليبرر إيمانه بأفكار المعتزلة.

المتوكل: من هو أرسطو هذا؟

المحتسب: فيلسوف يونانى كافر يدعو إلى استخدام المنطق وتقديم حكم العقل على حكم الشريعة. وادعى المأمون أن أرسطو هذا قد ظهر له فى حلم ونصحه بهذا.

المتوكل : وماذا تقول أنت؟

المحتسب: نقول ان النبى محمد قد ظهر لك فى المنام وتشفع فى أمرحنين.

الخليفة : (يهزرأسه ثم ويضحك) خيبك الله. تفتكر النبى محمد هيتشفع لحنين ؟

المحتسب: (يضحك أيضا) بعيدة شوية. نقول المسيح هو الذى ظهر وتشفع له.

الخليفة: هذا معقول، والفقهاء لاينكرون المسيح ؟

المحتسب: سلمت يا مولاى. لقد نطقت بالرأى الصائب.

الخليفة: (بعد تفكير) لكن إذا كان المأمون قد كذب على أرسطو فهذا فيلسوف كافر، فكيف تريدنا أن نتجرأ ونكذب على أنبياء الله محمد أو المسيح ؟

المحتسب: معذرة يا مولاى. لقد ضاقت بنا السبل فأصبحنا نخرج على الحدود.

المتوكل: لقد سلمت أمرى إلى الله ليفعل مايشاء، واتركونى لاستريح الليلة.

يوسف: ظل حنين فى السجن وقتا طويلا ولم يزل على هذه الحال إلى إن اعتل أمير المؤمنين، و ذلك فى اليوم الخامس من الشهر الرابع من يوم حبسه، و كانت علته صعبة جداً إذ أقعدته و لم يعد قادرا على الحركة حتى يئس من الشفاء، ويئس أيضا من نفسه. والأطباء الآخرون عنده ليلا و نهارا، لا يزايلونه ساعة واحدة، و هم يعالجونه و يداوونه، و يسألونه فى كل وقت فى أمرحنين، و يقولون " له لو أراحنا مولانا أمير المؤمنين من ذلك الزنديق الملحد الكافر لأراح منه الدنيا، وانكشفت عن الدين محنة عظيمة" .

فلما طالت مساءلتهم له فى أمرذاك المسكين، و كثر ذكرهم له بين يديه بكل سوء، قال لهم ، فما الذى يسركم أن أفعل به ؟ قالوا له ، تريح العالم منه .

و كان مع ذلك كل من سأل فى أمرحنين، و تشفع له عند الخليفة من أصدقائه يقول بختيشوع :" يا أمير المؤمنين هذا بعض تلاميذه و هو يعتقد اعتقاده " فابتعد الناس المخلصون خوفا على أنفسهم من الوشاية، و كثر التدبير حول حنين حتى ضاقت نفسه، واستولى عليه اليأس. فماذا يفعل بعد أن أغلق عليه الأشرار منافذ الحياة . وها هو اليوم يقترب إذ قال لهم أمير المؤمنين و قد لجوا عليه فى السؤال، فإنى أقتله فى غد يومنا هذا، و أريحكم منه. فسر بذلك الجماعة ،و انصرفوا على ما يحبون . "

المشهد الرابع

(يسلط الضوء على شخص الخليفة وهو راقد فى فراشه وحوله بعض الأطباء وفى مقدمتهم بختيشوع والطيفورى)

الخليفة (يئن بصوت مسموع) لقد طالت علتى. مضت أسابيع وأنا اتعاطى أدويتكم العقيمة بلا فائدة.

بختيشوع :(فى خنوع وخوف) معذرة يامولاى. نحن نقضى الليل والنهار فى التفكير والتدبير، وقراءة كتب الطب لكى نعثر على دواء يخفف هذه الحالة. وسوف تشفى قريبا بإذن الله

الخليفة : أنا لآ أريد تمنيات أوتعلات. لم أعد قادرا على الحركة.

الطيفورى: صبرا يا مولاى. لقد اهتدينا جميعا الى وصفة نعتقد أنها ناجعة فى علاج هذه الحالة وسوف نجربها بضعة أيام، وكلنا أمل فى زوال هذه الشدة سريعا بإذن الله.

الخليفة: لقد نفد صبرى. تعبت من الرقاد والعجز عن الحركة.

بختيشوع : لاتقلق يامولاى. غدا سوف تحس بتحسن كبير.

الخليفة : قد اصابنى القرف من كثرة الأدوية. وصرت يائسا من علاجكم.

الطيفورى : (ينتفض ويهب واقفا وينظر الى الآخرين نظرة ذات مغزى، لقد خشى أن يفكر الخليفة فى اللجوء إلى حنين)

معذرة يا مولانا ولكن غدا بإذن الله سوف تحس بتحسن كبير . الليلة ستأخذ حماما ساخنا بعد أن يقوم هؤلاء الأطباء الشباب بعملية تدليك لكل عضلات جسمك (يشير الى شابين)

بختيشوع: هذا أمر مجرب وسوف تنعم بنوم هادىء الليلة.

الخليفة : دعونى الآن مع الشباب وغدا نرى مايحدث.

(يخرج بختيشوع والطيفورى وبقية الجماعة بهدوء وهم يكتمون أنفاسهم. ينتحى الطيفورى جانبا ويهمس لبختيشوع)

لابد من دفع الخليفة للتخلص من حنين سريعا حتى لايلجأ إإليه.

(يدعو الخليفة الطبيبين الآخرين ليقوما بعمل الدهانات والمساج. وبمجرد أن تبدأ هذه العملية تخفت الأضواء وتظهر حركاتهم كالأشباح مستمرة حتى نهاية عملية المساج، فيستأذنان فى الخروج ويتركان عملية الاستحمام للممرضات من الجوارى..وتعود الأضواء شيئا فشيئا. وبعد قليل تظهر شهرزاد)

الخليفة : ماذا وراءك ياشهرزاد ؟

شهرزاد: قلبى يتمزق من أجلك يا مولاى. وكلما دخلت على حنين فى خلوته وجدته إما أنه يقرأ ويكتب أو يصلى .وهو يبكى بدموع حارة ويشكو الى الله أن يكشف الغمة ويكشف أمر الأشرار الذين حفروا له هذه الحفرة.

الخليفة : هل يعلم بأنى مريض ؟

شهرزاد: لمحت له فدعا لك بالشفاء ثم بكى وقال : لقد أغضبوا الخليفة منى وأبعدونى عنه حتى لا أكشف جهلهم وتخلفهم .

الخليفة : الايقول شيئا آخر ؟

شهرزاد: أحيانا يحكى لنا عما قدمه لهم من ترجمات كانوا يطلبونها فيقدمها لهم، فقد كانوا يستشيرونه حين يعجزون عن علاج أى مريض فيقوم بإعداد الدواء لهم وأيضا يقدم لهم المشورة دون إبطا، بل ودون أجر فى أغلب الأحوال. ورغم ذلك فإنهم يذمونه ويشهرون به مع رجال الحاشية والبلاط لينالوا حظوة على حسابه .

الخليفة : وماهو احساسكم نحوه ؟ هل تحسون أنه صادق ؟

شهرزاد: أجل يامولاى. لقد جربناه فى العلاج. ونحن نلجأ إليه كلما شعرت واحدة منا بوعكة أو بألم. وقد لاحظنا اهتمامه بسماع شكوى أى مريضة والدقة فى وصف الدواء . كان بارعا فى كل حالة عرضت عليه.

الخليفة: ألم تحسوا أنه غاضب منى أو كاره لى ؟

شهرزاد: أشهد أنا وزميلاتى بأنه رجل لايعرف الكراهية أبدا. وفى دعواته يلجأ الى الله أن يهدى الخليفة الى سواء السبيل، لكى يرفع عنه الظلم الذى وقع عليه بسبب الواشين والمحرضين.

الخليفة : ألايذكر أسماءهم؟

شهرزاد : إنهم الأطباء النصارى الذين يحسدونه على علمه وتفوقه عليهم.

الخليفة : والمسلمين، ماذا يقول عنهم ؟

شهرزاد :يذكرهم بالخير. إنه يذكر على يحيى بن المنجم وأبا الحسن بن ربان الطبرى ويقول إنهم من أخلص تلاميذه وأصدقائه.

الخليفة : هذا صحيح. لقد تشفعا له هذان الرجلان مرات ومرات.

شهرزد : ليتك يامولانا تضم شفاعتنا له إلى شفاعتهم وتقبلها منا. إنه طبيب صادق وأمين. ليتك تتفضل وتعطيه فرصة أخرى للاختبار.

الخليفة: سوف أفكر فى الأمر. هيا أعدوا الحمام لنستحم بالماء الساخن لنرى آخر محاولات هؤلاء الأطباء المخادعين .

(عند إخراج هذا العمل يجب أن يشتمل هذا المشهد على دور آخر للجوارى مثل تسلية الخليفة والتخفيف عنه بحكاية نوادر تنسب الى حنين أو أشعار أوأغانى أو رقصات)

(فى الليلة الثانية يتكرر نفس المشهد. الخليفة على سريره وحوله الأطباء إياهم)

الخليفة: لقد أخذت بنصيحتكم وجربت كل ما اشرتم به على ولم أشعر بأى تحسن. يئست منكم ومن علاجاتكم. كل يوم علاج جديد. قولوا انكم لاتعرفون علتى وأريحونى منكم. ابحثوا لى عن طبيب يعرف علتى فى أى مكان ولو فى القسطنطينية وأنا أرسل من يحضره. لايمكن أن أظل هكذا رهن تجاربكم الفاشلة.

الطيفورى: (بلهجة حزينة) حاشا لمولانا أن ييأس أو يصيبه مكروب. لقد صليت بالأمس فدعوت دعاء حارا بأن يمد المسيح يده الشافية ويمن عليك بالشفاء العاجل فتنهض واقفا كما حدث لمفلوج بركة سلوان الذى قال له المسيح قم واحمل سريرك وامشى وفى الحال شفى .. وفى أثناء الصلاة والدعاء لك غفوت دون أن أدرى فرأيت حمامة بيضاء نازلة على مولاى فتأكدت أن الشفاء حاصل بإذن الله .

الخليفة: حمامة السلام أم رسول عزرائيل ؟

الطيفورى: لا قدر الله يا أمير المؤمنن. نحن نفديك بأرواحنا. أما عزرائيل فليأخذ عدوك وعدونا أجمعين.

بختيشوع: يا ليته يفعل.

الخليفة : يفعل ماذا ؟

بختيشوع : يأخذ روح عدونا وعدوك يامولاى.

الخليفة : من تقصد ؟

الطيفورى: هو فيه غيره يامولاى. حنين المترجم مصدر هذا البلاء.

بختيشوع: فبالقضاء عليه ستزول هذه الغمة ويتعافى مولاى وتعود إليه الهمة.

الخليفة : وماعلاقة حنين بما أنا فيه.

الطيفورى: هذا ابتلاء وتجربة من الله حتى يعمل مولانا على تطهير مملكته من الزنادقة والمكذبين بالكتب المنزلة.

بختيشوع: ولو أراحنا مولانا من ذلك الزنديق الملحد لأراح الدنيا من شره ورفع عن الدين محنة عظيمة.

الخليفة: فما الذى يسركم أن أفعل به؟

الجميع: تريح العالم منه.

الخليفة: غدا سأقتله .

(يخرج الأطباء جميعا وهم فى غاية السرور. ويتغير المشهد ونرى شهرزاد تحكى)

ذهب بعض الخدم إلى حنين فى محبسه، وأخبره بما جلرى فى أمره. فأخذ حنين يدعو الله عز وجل، أن يترفق به مما سينزل به فى الغد بغير جرم استوجبه، ويسأل من لاينام ولا يغفو أن يهدى الخليفة الى الصواب وأن ينير بصيرته حتى يرى حقيقة المحيطين به وخبث طويتهم.

(يضاء النور على الخلبفة وتظهر شهرزاد والجوارى من حوله)

شهرزاد: كيف حال مولانا.

الخليفة: لم أشعر بأى تحسن. لافائدة من الأدوية أوالأطباء.

شهرزاد: لاتجزع يامولاى فالله هو الشافى. لكننى لا أثق فى كفاءة هؤلاء الأطباء.

الخليفة: لقد فقدت ثقتى فيهم وطلبت منهم أن يبحثوا عن طبيب معروف فى أى مكان من االعالم لكى أرسل فى طلبه .

شهرزاد: لكن هذا يأخذ وقتا طويلا، فلماذا نضيع الوقت، ولدينا أعظم طبيب فى الدنيا وهو رهن إشارة مولاى.

الخليفة: من هو هذا الطبيب؟

شهرزاد: حنين يامولاى.رجل مبروك وطبيب بارع. إنى أراه أشبه بالنساك والمتصوفة فى كلامه وسلوكه.

الخليفة: لقد أعجبكم الرجل وأصبحتن تدافعن عنه طول الوقت.

شهرزاد: إن صحة مولانا هى الأمر الذى يشغلنا جميعا. وقد تربصنا بالرجل شهورا طويلة وحاولنا معه بكل مانملك من سحر وجمال فلم يضعف أمام الإغراء وكان فى كل وقت يعيدنا الى الصواب

ويحدثنا عن قيمة الانسان وعظمة الخالق الذى رفعه فوق كل الكائنات الحية من أجل تعمير الكون وتحقيق الأمن واالسلام للجميع.

الخليفة: وهل يمكن بعد كل ما فعلته معه أن يسامحنى أو يخلص لى فى العلاج ؟

شهرزاد: هذا رجل لايضمر شرا لمولانا أبدا ويقول إنه ضحية وشاية كاذبة. ونحن نرجو أن تعطيه فرصة ولو ليوم واحد بعد أن فشل الأطباء الآخرون.

الخليفة: امهلونى الى الغد.

(تتحول شهرزاد لتخاطب الجمهور)

ظل حنين قلقا طيلة الليلة يفكر فيما سيحدث له فى الغد وعز عليه أن يموت دون أن يودع زوجته وابنيه وراح يبكى بدموع حارة ويرفع يديه الى السماء ويقول بصوت مسموع:

"اللهم إنك عالم ببراءتى، فأنت أولى بنصرتى"

(فلاش باك حيث يظهر حنين فى سجنه ونسمعه يتكلم وهو واقف على المسرح)

وطال التفكير بى إلى أن حملنى النوم ، فإذا بهاتف يحركنى، و يقول لى، قم فاحمد الله و أثن عليه، فقد خلصك من أيدى أعدائك، و جعل عافية أمير المؤمنين على يديك ، فانتبهت مرعوبا،

فلم أزل أحمد الله و أثنى عليه، إلى أن جاء وجه الصبح، فجاءنى الخادم ففتح علي الباب، ولم يكن الوقت الذى اعتاد أن يجيئنى فيه، فاستعنت بالله، فما جلس الخادم الا هنيهة، إذ جاء غلامه و معه مزين فتقدمت فأخذ من شعرى، ثم مضى بى إلى الحمام، فأمر بغسلى و تنظيفى، والقيام علي بالطيب كما أمره مولاى أمير المؤمنين. ثم خرج من الحمام فطرح علي ثيابا فاخرة، و ردنى إلى مقصورتى، إلى أن حضر سائر الأطباء عند أمير المؤمنين، وأخذ كل واحد منهم موضعه. فدعانى أمير المؤمنين، فنظر إلي و لم يزل يدنينى إلى أن أجلسنى بين يديه ، و قال لى ، قد غفرت لك ذنبك و أجبت السائل فيك، فاحمد الله على حياتك وخذ مجسى وشر على بما ترى، فقد طالت علتى. فأخذ حنين مجسه، وأشار بأخذ خيار شنبر منقى من قصبه، و ترنجين لأن الخليفة كان يشكو امساكا،وكانت حالته الصحية تفرض استعمال هذا الدواء.

فقال الأطباء الأعداء : نعوذ بالله يا أمير المؤمنين من استعمال هذا الدواء، إذ كان له غائلة ردية،

الخليفة : امسكوا عن الكلام. فقد أمرت أن آخذ ما يصفه لى. (ثم أمر بإعداده وأخذه لوقته).

أما أنت يا حنين، اجعلنى فى كل ما فعلته بك فى حل. فشفيعك عندى قوى.

حنين: مولاى أمير المؤمنين فى حل من دمى، فكيف وقد من على بالحياة !.

الخليفة: تسمع الجماعة ما أقوله. (فأنصت إليه جميعهم)

اعلموا إنكم انصرفتم البارحة مساء على أنى سأقتل حنينا اليوم كما وعدتكم .

فلم أزل أقلق إلى نصف الليل متوجعا، فلما كان ذلك الوقت، غفوت، فرأيت كأنى جالس فى موضع ضيق، وأنتم معشر الأطباء بعيدون عنى بعداً كثيراً ، وأنا أقول لكم، ويحكم ،أما تنظرون فى أى موضع أنا ؟!، أهذا يصلح لمثلى؟!، و أنتم سكوت لا تجيبوننى عما أخاطبكم به. فإذا أنا كذلك حتى أشرف على فى ذلك الموضع ضياء عظيم مهول حتى رعبت منه، وإذا أنا برجل بهى الطلعة قد وافانى و هو جميل الوجه، وخلفه رجل آخر ، عليه ثياب حسنة .

فقال لى، السلام عليك فرددت السلام، فقال لى، أتعرفنى؟ فقلت لا، فقال: أنا المسيح عيسى بن مريم. فتقلقت و تزعزعت، وقلت، من هذا الذى معك؟ فقال: " حنين بن إسحاق " فقلت، اعذرنى، فلست أقدر ان أقوم لأصافحك، فقال: اعف عن " حنين " و اغفر ذنبه، فقد غفر الله له، واقبل ما يشير به عليك فإنك تبرأ من علتك.

فانتبهت وأنا مغموم مما جرى على " حنين " منى، و مفكر فى قوة شفيعه عندى فإن حقه الآن على واجب، فانصرفوا ليلزمنى كما أمرت، وليحمل إلى كل واحد منكم عشرة آلاف درهم، لتكون دية من سأل فى قتله. وهذا المال يلزم من حضر المجلس البارحة و سأل فى قتله، ومن لم يكن حاضرا فلا شئ عليه. ومن لم يحمل ما أمرت بحمله من هذا المال لأضربن عنقه.

(الخليفة يلتفت الى حنين ويقول له) اجلس والزم رتبتك.

الراوى :

و خرجت الجماعة ، فحمل كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فلما اجتمع سائر ما حملوه أمر الخليفة بأن يضاف إليه مثله من خزانته، و كان المبلغ زائدا عن مائتى ألف درهم، وأن يسلم إلى

حنين، فتم ذلك. فلما كان أخر النهار، و قد أقامه الدواء ثلاثة مجالس أحس بتحسن حالته، و خف ما كان يشكو منه.

قال الخليفة: أبشريا حنين بكل ما تحب. فقد عظمت رتبتك عندى وزادت طبقتك أضعاف ما كنت عليه، فسأعوضك أضعاف ما كان لك، وأجعل أعدائك يحتاجون إليك وأرفعك على سائر أهل صناعتك .

ثم أمر بإصلاح ثلاث دور من دوره التى لم يسكن قط منذ نشأت فى مثلها، ،وحمل إليه كل ما كان يحتاجه من الأوانى والفرش والكتب والآلات و ما شاكل ذلك، بعد أن كتب له الدور، و ووثق عقودها بشهادات العدول، لأنها كانت خطيرة فى قيمتها، يربو ثمنها على عدة ألاف من الدنانير ،وبدافع محبته له وعطفه عليه أحب أن تكون لحنين ولذريته، ولا تكون على حجة لمعترض.

فلما فرغوا مما أمر به من نقل الأحمال إلى الدور وتزيينها بأجمل أنواع الستائر، و لم يبق أمامه غير أن يمضى إلي هذه الدور، أمر بحمل المال الكثير بين يديه، ووهب له الثلاث جاريات، و أمرله فى كل شهر بخمسة عشر ألف درهم، وأطلق له الفائت من رزقه عن الشهور التى قضاها فى الحبس، فكان شيئاً كثيراً.

انتهت

هوامش :

عاش حنين عشرين عاما بعد نكبته الأخيرة مبجلا من الخلفاء : المعتصم بالله (توفى عام 248 هـ) و المستعين بالله (توفى عام251 هـ) و المعتز بالله (توفى عام 255هـ) و المهتدى بالله (توفى عام 256 هـ) و المعتمد على الله (256 – 279 هـ) ، و توفى خلال

خلافة الأخير كما جاء فى (الفهرست) سنة 260 هـ . و لكن الأرجح هو أنه قضى نحبه لست خلون من صفر سنة 264 هـ كما جاء فى كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة) و كانت مدة حياته سبعين سنة و قيل انه مات بالذرب . و قيل إن حنينا بدأ ترجمة كتاب " فى قوام الصناعات " لجالينوس قبيل وفاته بشهرين لكنه لم يتمه .

ومما يؤسف له أننا لا نعلم الشئ الكثير عن طريقة العمل التى اتبعها هذا العلامة الدؤوب فى حياته العلمية . و لم يكتب ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان) الذى ألفه فى سنة 654 هـ عن أسلوب حنين فى حياته اليومية سوى النبذة الآتية التى نقلها عن رسالة مفقودة من تصنيف عبيد الله بن جبرائيل ابن بختيشوع (توفى عام 450 هـ) و هى :

" كان حنين فى كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام فيصب عليه الماء ، و يخرج فيلتف فى قطيفة، و يشرب قدح شراب، و يأكل كعكة، و يتكئ حتى ينشف عرقه، وربما نام ثم يقوم و يتبخر و يقدم له طعامه، و هو فروج كبير مسمن قد طبخ زيرباجا، ورغيف وزنه مائتا درهم . فيحسو من المرقة و يأكل الفروج و الخبز و ينام . فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شرابا عتيقا. فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامى و السفرجل و كان ذلك دأبه إلى أن مات .

المراجع

ابن أبى أصيبعة – عيون الأنباء فى طبقات الأطباء

1- شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا

دار مكتبة الحياة –بيروت 1965(ص 255)

2- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق ودراسة الدكتور عامر النجار.الهيئة العامة للكتاب 2001(ج2 ص140)

3- حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية ن تأليف : نسيم مجلى_المجلس الأعلى للثقافة 2006